المعجزة والرسول

من خلال سورة الفرقان

بقلم

أ. د. مصطفى مسلم

دار القلم
دمشق

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المعجزة والرسول

من خلال سورة الفرقان

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

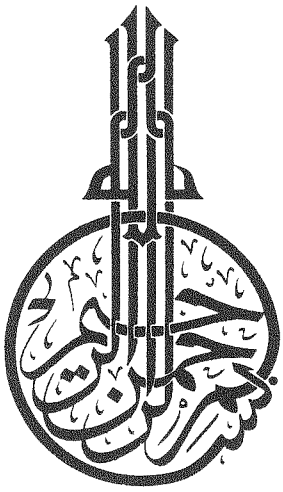

الجديد و الحصري
NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المعجزة والرسول

من خلال سورة الفرقان

بقلم
أ. د. مصطفى مسلم

دار القلم
دمشق

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٦٦ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونسترشده، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أما بعد:

فإن خير ما تُصرف فيه الأوقات، ويؤمل به ترجيح ميزان الحسنات، هو العلم الشرعي وبخاصة خدمة كتاب الله عزَّ وجلّ.

ولما مارست مهنة التدريس في قسم القرآن وعلومه، مدة لا تقل عن ربع قرن من الزمان، وكانت مادة التفسير الموضوعي في مرحلة الدراسات العليا أكثر مادة قمت بتدريسها، واطّلعت على جلِّ ما كُتب في هذا النوع من التفسير وجمعت فيه دراسات قمت بإعدادها رأيت نشرها لطلاب العلم، لعلّها تكون مساهمة ذات أثر في ترسيخ منهج البحث في التفسير الموضوعي بألوانه الثلاثة. فإن مناهج التفسير الموضوعي لم ترسخ دعائمه بعد، على الرغم أن موضوعات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كثيرة تناولها الكتّاب والباحثون على طريقة التفسير الموضوعي، إلا أنَّ الذين تعرضوا للكتابة في المنهج عدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليدين. إن تحديد المسار وتوضيح المنهج من أهم الجوانب التي ينبغي أن تصب عليها الاهتمامات، أما الجانب التطبيقي فهو ميسور بمكنة كلّ باحثٍ أن يحدد موضوعاً يسير على المنهج المرسوم بعد أن تحدد معالمه.

إن التفسير الموضوعي الذي يعتبر ـ بحقٍّ ـ اللون السائد في هذا العصر هو الذي يحل مشكلات العصر ويلبي حاجات المجتمعات المعاصرة ويبرز نظرية الإسلام في القضايا المعاصرة، إذ باتباع هذا المنهج يستنطق الباحث روح النصوص ودلالاتها ليستنبط منها الهدايات القرآنية في المجال الذي يبحث فيه فربما جاءت الإشارة إلى الشيء في غير مظان الآيات، وربما جاءت من خلال الروابط أو السياقات أو من الانتقالات بين المقاطع فيتصيد الباحث لمحة هنا وإشارة هناك فيجمع خيوطها وينسق بينها ليخرج بنتائج مفيدة.

أسأل الله جلّ جلاله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم. وأن يسدد خطانا، ويوفقنا لخدمة كتابه الكريم.

وآمل من الإخوة أصحاب الاختصاص أن يوجهوا لي ملحوظاتهم وتصويباتهم لعلّها تصحح المعوج وتثري المعلومات وتوضّح المنهج والله من وراء القصد.

كتبه

مصطفى مسلم محمد

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تمهيد

لا زالت مناهج البحث في التفسير الموضوعي بحاجة إلى دراسة وتأصيل فعلى الرغم من كثرة الموضوعات التي تناولها الباحثون من خلال القرآن الكريم، وعلى الرغم من انتشار أسلوب تناول الباحثين تفسير سورة واحدة ركّز فيها المفسر على إبراز الموضوعات في السورة أو تقسيمها إلى مقاطع، وتناولها بتفسير هذه المقاطع إجمالاً أو تفصيلاً وإبراز المناسبات بين هذه المقاطع. إلا أن أكثر الباحثين لم يذكروا المنهج الذي ساروا عليه، والطريقة التي ينصحون بها غيرهم لاتباعها. ولم يرسموا لطلاب العلم المسلك الذي يتبعونه عندما يتناولون موضوعات من خلال القرآن الكريم، أو يقومون بتفسير سورة واحدة.

إن المنهج الذي سار عليه المفسرون القدماء ـ ويطلق عليه الآن (منهج التفسير التحليلي) قد شق طريقه واستقر لدى الباحثين ـ من تقديم التفسير بالمأثور بتفرعاته الأربعة، ثم الاهتمام بدلالات الكلمات اللغوية والروابط بين الجمل والتراكيب، وإبراز الوجوه البلاغية، بالإضافة إلى القراءات ووجوه الإعراب ودورها في فهم المعاني المختلفة إلى استنباط الأحكام والهدايات. واستقلال الآية هو الأصل في منهجهم، وربما وجد بين المفسرين من بحث عن وجه المناسبة بين الآية وسابقتها، ولكن لا يعتبر ذلك من أساسيات منهج التفسير التحليلي. إلا أن ظهور التفسير الموضوعي في الساحة بعد أن قُررت دراسته في الأزهر منذ نصف قرن تقريباً، ووجد كثير من المؤلفات طريقها إلى النشر، اهتم بعض المختصين بمناهج التفسير والمفسرين بالكتابة في هذا اللون من التفسير، محاولة منهم لرسم المنهج أمام طلاب العلم.

إلا أن الكاتبين أنفسهم لم يتفقوا على منهج موحد في التفسير الموضوعي وقد تعرضت في كتابي (مباحث في التفسير الموضوعي) إلى منهج البحث في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التفسير الموضوعي سواء كان موضوعاً من خلال القرآن، أو تفسير سورة تفسيراً موضوعياً. أو مصطلحاً قرآنياً تكرر كثيراً في الآيات والسور.

وأرى أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التمحيص والتدقيق والتأصيل كما يحتاج إلى جهد أكثر من باحثٍ، وإلى تداول آراء أهل الاختصاص، لعلهم يصلون إلى منهج موحد مؤصّل يمهد السبيل أمام الباحثين وطلاب الدراسات العليا في تخصص القرآن وعلومه، فمعظم رسائل التخصص تكون في التفسير الموضوعي، وقد قلتُ في مناسبات عدة: إن اللون السائد في هذا العصر من أنواع التفسير هو نوع التفسير الموضوعي. فعن طريقه يمكن أن نتعرف على الحكم الشرعي لمشكلات وقضايا حدثت بعد تطور العلاقات الاجتماعية، كالتأميم، والتأمين، والحرية، والديمقراطية. وباتباع منهج التفسير الموضوعي نستطيع أن نؤصّل علوماً قد فرضت نفسها وليس لنا نظرية محددة لها كعلم الاجتماع وعلم النفس، والإعلام، والاقتصاد. وباتباع مناهج التفسير الموضوعي نستطيع أن نبرز في هذا العصر جوانب من إعجاز القرآن الذي لا تكتنه أسراره، ولا تستقصى عجائبه، ولا تنفذ ذخائر كنوزه، وبالتعرف على سنن الله في الكون والمجتمعات نستطيع أن نصحح مسار بعض العلوم الإسلامية كعلم التاريخ والحضارة الإنسانية وإبراز حكمة التشريع في شرائع الله العليم الحكيم. ولا يكون كل ذلك إلا عن طريق التفسير الموضوعي.

فكان من الحاجة بمكان إبراز مناهج البحث في التفسير الموضوعي ولعل في السطور القادمة إضافة جديدة إلى ما سبق أن تناولته بهذا الصدد، والله من وراء القصد.

منهج البحث في تفسير سورة تفسيراً موضوعياً:

لما كان ترتيب الآيات في السورة توقيفياً موحىً به، كما هو إجماع الأمة على ذلك، فإن السورة وعلى الرغم من تباعد الفترات الزمنية التي نزلت فيها الآيات الكريمة أحياناً، وعلى الرغم من اختلاف الموضوعات التي تناولتها الآيات وضمتها السورة، يحيط بها سور واحد وتصبغ بصبغة واحدة من حيث الأسلوب،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتهدف إلى هدفٍ واحدٍ لإثبات حقيقة في المعتقد، أو تقويم سلوك للإنسان حاد عن الجادة، أو لفت نظر إلى سنّة إلـهية بثها في الكون الفسيح، أو إبراز حقيقة كونية جعلها علامة على توحيد خالقها وعلمه المحيط. فلا بد أن تتشابه الملامح الظاهرة والخفية في السورة الواحدة، يقول سيد قطب رحمه الله: «... إن لكل سورة من سوره ـ القرآن ـ شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها بتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو ولها إيقاع خاص إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور...»[1].

والتفسير الموضوعي للسورة الواحدة يتركز البحث فيه على إبراز هذه الشخصية المتميزة للسورة من خلال ثلاثة جوانب:

الأول: التعرف على محور السورة وإبرازه.

الثاني: المناسبات في السورة ودورها في إبراز شخصيتها وأغراضها.

الثالث: مقاطع السورة التي تمثل قوام السورة ومتنها، بالإضافة إلى الافتتاحية والخاتمة التي تمثل ملخص السورة وأهدافها.

لنتناول كل جانب من هذه الجوانب بالتفصيل، لأنها في صميم منهج التفسير الموضوعي.

خطوات البحث في تفسير سورة تفسيراً موضوعياً:

* الخطوة الأولى: التعريف بالسورة:

قبل الإقدام على أي خطوة في تفسير السورة لابد من التعرف على السورة

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٢٨، ط٢، دار الشروق، ١٣٩٥هـ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما يحيط بها وذلك من خلال مقدمة أو تمهيد أو عنوان (بين يدي السورة):

- ويتعرض فيه إلى اسم السورة أو أسمائها وهل فيها ما هو مسند إلى رسول الله ﷺ أو إلى أحد من الصحابة، أو أن الاسم اشتهرت به السورة وسجل في المصاحف وتناقله المسلمون.

والوقوف على الاسم المسند إلى رسول الله ﷺ له أهمية خاصة - كما نرى - لعلاقته الوثيقة بمحور السورة.

كما يذكر في هذا الباب التمهيدي المرحلة الزمنية التي أنزلت فيها السورة:

فإن كانت السورة من العهد المكي نحاول أن نتعرف على المرحلة التي نزلت فيها: أهي المرحلة الأولى أم الثانية أم الثالثة وذلك من خلال الروايات التي تذكر الوقائع التي سبقت نزولها وكانت سبباً لها، فإن لم تسعفنا الروايات لمعرفة المرحلة رجعنا إلى خصائص السور المكية فإن السور المكية التي نزلت في أول البعثة النبوية تختلف من حيث الأسلوب والموضوعات عن السور المكية التي نزلت في المرحلة الثانية والثالثة.

وكذلك السور التي نزلت في المرحلة الثانية تختلف موضوعاتها وأسلوب عرض القضايا فيها عن أسلوب المرحلة الثالثة. فبإمكان الباحث أن يدرك المرحلة الزمنية للسورة من استعراض الموضوعات ومن خلال دراسة الأسلوب للسورة.

أما إذا كانت السورة مدنية فكذلك نحاول تحديد المرحلة التي نزلت فيها السورة من خلال روايات أسباب النزول، أو من خلال الموضوعات أو القضايا المثارة في السورة.

ولمعرفة المرحلة الزمنية وتحديدها أثر كبير في التعرف على محور السورة وعلى الموضوعات التي تشكل روافد المحور في السورة.

- ويتعرض الباحث في التمهيد أيضاً لمزايا السورة وفضائلها إن وجدت، فإن بعض الروايات تلفت الانتباه إلى نقاط مضيئة أو إلى مراكز ثقل فيها أو إلى لون من ألوان الربط بين آياتها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما ذكر عدد آيات السورة واختلاف القرَّاء والعادّين فيها فلا مانع منه، وإن كان دون أهمية النقاط السابقة. ولكن من باب الإحاطة بما يتعلق بالسورة.

*** الخطوة الثانية: التعرف على محور السورة:**

من أساسيات التفسير الموضوعي للسورة التعرف على محور السورة.

ويمكن تحديد المحور من خلال الأمور التالية:

● الأول ـ اسم السورة:

فالاسم التوقيفي عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم ينبئ عن معنى ذا دلالة في السورة، فأول ما يعمل فيه الباحث عقله هو البحث عن الصلة بين اسم السورة وأهم الموضوعات فيها.

يقول البقاعي: «قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل... الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها. فهذا هو الأمر الكلي الميهمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة، والله الهادي.

وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عملي هذا الكتاب، أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها...».

ثم يطبق البقاعي هذه القاعدة على أسماء سورة الفاتحة فيقول:

«فالفاتحة اسمها: أم الكتاب، والأساس، والمثاني، والكنز، والشافية،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والكافية، والوافية، والواقية، والرقية، والحمد، والشكر، والدعاء، والصلاة.

فمدار هذه الأسماء كما ترى على أمر خفي كاف لكل مراد وهو: المراقبة التي سأقول إنها مقصودها، فكل شيء لا يفتتح بها لا اعتداد به.

وهي أم كل خير، وأساس كل معروف، ولا يعتد بها إلا إذا ثنيت فكانت دائمة التكرار، وهي كنز لكل شيء، شافية لكل داء، كافية لكل همٍّ، وافية بكل مرام، واقية من كل سوء، رقية لكل مسلم، وهي إثبات للحمد الذي هو الإحاطة بصفات الكمال، وللشكر الذي هو تعظيم المنعم، وهي عين الدعاء فإنه التوجه إلى المدعو، وأعظم مجامعها الصلاة. إذا تقرر ذلك فالغرض الذي سيقت له الفاتحة هو إثبات استحقاق الله لجميع المحامد وصفات الكمال... ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم...»[1].

وقد يدق دلالة اسم السورة على محورها ويحتاج إلى إطالة نظر وإعمال فكر، وتتبع الأقوال والسوانح عند المفسرين.

وباستخدام القاعدة التي ذكرها الإمام البقاعي يمكننا الربط بين أسماء مجموعة من السور ومحاورها فمثلاً:

أولاً ـ سورة البقرة:

سميت باسم حادثة بقرة بني إسرائيل. ولقد ذكر أكثر من عشر خوارق في هذه السورة من ضمنها أكثر من خمس خوارق فيها إحياء الموتى ولم تسمّ السورة بواحدة من تلك، وإنها سميت بحادثة البقرة في بني إسرائيل!!.

وبإمعان النظر في أحداث القصة ودلالاتها نجد أن أبرز صفات بني إسرائيل ذكرت فيها وهي إجمالاً:

١ ـ موقفهم من قضية الغيب والإيمان به ومن ضمن ذلك الغيب: الوحي

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/ ١٧ ـ ٢١ باختصار، ط الهند.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المنزل من الله على نبيه موسى عليه السلام، حيث لم يؤمنوا به إيمان المتيقن فعندما أمرهم موسى قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: ٦٧]. قالوا ذلك وهم يعتقدون نبوته، وقد لجؤوا إليه للحكم بينهم في قضية القتيل.

وعندما يقول لهم موسى عليه السلام: «إن الله يأمركم» فمعنى ذلك أن الله أوحى إليه بذلك. فهل آمنوا واستسلموا؟!.

٢ ـ موقفهم من الأنبياء: إن حادثة البقرة تدل على أن قول النبي لا يحمل عندهم على الجد والالتزام إن خالف أهواءهم، فعندما أمرهم موسى أن يذبحوا بقرة ظنوا أنه يستهزئ بهم، علماً أن موسى عليه السلام في موقف القضاء والحكم، وهو في ذلك يبلغ رسالة ربه، فظنوا به ما ظنوا لعدم إدراكهم ما يليق بالأنبياء من الكمالات، وما يعصمون منه من النقائص في الصفات والأخلاق. ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. كيف يظنون به ذلك والسفاهة والجهل من الأمور التي لا تليق بعامة العقلاء فما بالك بالأنبياء والمرسلين.

٣ ـ موقفهم من الالتزام بالشرائع والأحكام: من طبيعة بني إسرائيل التردد في الالتزام بأحكام الشريعة، والتحايل للتفلت من تكاليفها.

فبعد أن بيّن لهم موسى عليه السلام أن الموقف جدّ لا هزل فيه، وأنه أمر من الله، لم ينفذوا وإنما قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌۖ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨].

فلو أخذوا أدنى بقرة وذبحوها لأجزأتهم كما يقول ابن عباس[1] رضي الله عنهما.

ولكن النفوس التي جبلت على المراوغة والمماطلة لا تلتزم من أول مرة

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ١٩٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩].

وللمرة الثالثة لم ينفّذوا وراجعوا ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٠ـ٧١].

٤ـ وخلال هذه المحاورة والمراجعة يبدو سوء خلقهم وجلافتهم مع موسى عليه السلام فيقولون له: (ادع لنا ربك) فكأن الله جل جلاله هو رب موسى وليس بربهم. وفي ذلك من الوقاحة وسوء الأدب ما فيه.

وعندما وجدوا أن لا مناص من ذبح البقرة (قالوا الآن جئت بالحق) فهل ما كان قبل (الآن) غير الحق وحاشا أن يخبرهم نبيهم موسى عليه السلام بغير الحق.

فأبرز صفات بني إسرائيل ظهرت في هذه الحادثة.

وإذا علمنا أن الحديث عن بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وتعنتهم في تطبيق الشرائع وترددهم في الالتزام بها، حيث اضطروا إليها اضطراراً تحت الوعيد بإنزال الجبل عليهم، قد استغرق هذا الحديث عنهم أكثر من ثمانين آية. مما كشف سوءاتهم وأبرز دخائل نفوسهم للناس كل ذلك ليبين للعالم أنهم بهذه الصفات فقدوا مقومات القوامة على دين الله وشرائعه.

وبما أن دين الله وشرائعه يحتاج إلى أمة أمينة تلتزم بهدايات دين الله وتطبقه في واقع حياتها وتحمله إلى الناس دعوة عالمية تضحي في سبيله بكل ما تملك، فلا بد من أمة أمينة تملك مقومات القوامة، فجاءت آيات سورة البقرة بعد ذلك لتشير إلى أمة محمد ﷺ ورسولها الذي كان دعوة أبيه إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وتتوالى آيات التشريع لبناء هذه الأمة بناء ربانياً لتقوم بدور القوامة على دين الله بعد أن سلبت من بني إسرائيل.

لذلك نستطيع أن نقول: إن محور سورة البقرة (**القوامة على دين الله**).

وهذا المحور ذو شقين: سلبت القوامة من أمة وهو الشق الأول وأسندت القوامة إلى أمة وهو الشق الثاني.

فاسم (البقرة) يشير إلى أسباب سلب القوامة من بني إسرائيل لتسند إلى غيرهم.

ثانياً ـ سورة آل عمران:

وآل عمران: اسم عائلة عريقة من عوائل بني إسرائيل، ومن نسلها مريم عليها السلام وابنها عيسى عليه السلام.

فأحداث هذه الأسرة وتكوينها وما جرى لها ابتداء من نذر امرأة عمران وكفالة زكريا عليه السلام لمريم وبشارته بيحيى، ثم بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بالمسيح عيسى ابن مريم من غير أب. كل ذلك يفند معتقدات النصارى المحرفة عن المسيح وأمه. وتظهر العقيدة الصحيحة في الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد. وقد جاءت أكثر من ثمانين آية من أول السورة إلى قرب منتصفها لتصحيح العقائد والرد على انحرافات النصرانية وشبهاتها، ثم تأتي آيات الجهاد في سبيل الله من خلال ذكر غزوة أُحُد وأحداثها وعظاتها وعبرها الهائلة، لذا نستطيع أن نقول إن محور سورة آل عمران هو:

(الدفاع عن العقيدة باللسان والسنان) أو (تصحيح العقيدة والدفاع عنها) كان الدفاع عنها باللسان من خلال إزالة الشبهات والرد على النصارى، وكان الدفاع عنها بالسنان من خلال الدروس التربوية لغزوة أُحد.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثالثاً ـ سورة النساء:

سورة النساء من السور التي ثبت اسمها توقيفاً، ولو بحثنا عن العلاقة بين هذا الاسم وبين محور السورة لم نحتج إلى جهد كبير، فإن النساء رمز لطبقة في المجتمع الإسلامي تحتاج إلى رعاية وعناية خاصة، فالمرأة تحتاج إلى من يرعى شؤونها في كل مراحل حياتها سواء كانت بنتاً أو أختاً أو زوجة أو أماً.

فمحور سورة النساء يدور حول (**رعاية حقوق الضعفاء ـ المرأة واليتيم ـ في المجتمع الإسلامي**).

لذا نجد أن افتتاحية السورة تحدثت عن حقوق اليتيم ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢].

وتحدثت عن الإقساط في حق اليتيمات في الصداق والنفقة.

وعن العدل بين الزوجات وعن إعطاء المرأة حقها في الإرث ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۖ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

وتحدثت بعض مقاطع السورة عن المحرمات من النساء، وعن حل مشاكل الزوجية والرفق بالمرأة في حال نشوزها... إلى أن تختم السورة بآية الكلالة وهي أضعف أنواع الوارثين.

فاسم السورة رمز لرعاية حقوق الضعفاء في المجتمع، ومحور السورة يدور حول ذلك.

رابعاً ـ سورة المائدة:

وتسمية سورة المائدة بمائدة بني إسرائيل التي كانت معجزة لعيسى عليه السلام ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

وبما أن المائدة تحتوي على المطعومات والمشروبات المنوعة، فلم يرد

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في سورة من سور القرآن المطعومات والمشروبات ما أحل منها وما حرم كما جاء في هذه السورة.

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة: ١].

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة: ٤].

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٥].

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ ﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة: ٤٢].

﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ [المائدة: ٨٧].

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٨٨].

﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ [المائدة: ٨٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ ﴾ [المائدة: ٩٠].

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣].

﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٤].

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ثم تختم السورة بقصة مائدة بني إسرائيل.

فهل توجد سورة في القرآن جمعت بين الحلال والحرام من المطعومات والمشروبات كسورة المائدة؟

وإذا أضفنا إلى المطعومات والمشروبات الحسية المطعومات والمشروبات الروحية من العقائد والأخلاق والقصص اكتملت المائدة من أطايب الغذاء المادي والروحي.

فلا حرج أن نقول إذن: إن محور سورة المائدة المطعومات والمشروبات المادية والمعنوية.

وهكذا لو ذهبنا نستقصي الإشارات بين عناوين السور ومحاورها لوجدنا ضالتنا في ذلك؛ لذا نقول: إن الخطوة الأولى للتعرف على محور السورة هو الانطلاق من عنوانها قبل الالتفات إلى أي شي آخر.

● **الثاني - ويمكن التعرف على محور السورة من خلال معرفة المرحلة الزمنية للسورة، أي مكيتها أو مدنيتها**[1]:

نزل القرآن الكريم في مكة المكرمة لمدة ثلاثة عشر عاماً يرسّخ عقيدة الإسلام، ويبني الشخصية الإسلامية المتميزة بقوتها وفاعليتها ومنهجها الفريد في الحياة من خلال تزكية النفس وتطهيرها من عقابيل الشرك وموروثات الوثنية.

وكان عدة الهدم والبناء في كل ذلك القرآن الكريم بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وتدبر معانيه، والتفيؤ في ظلاله، ومعايشة هداياته، ومقارعة أعدائه به ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقد امتاز أسلوب القرآن المكي بمزايا منها:

---

(١) المصطلح الراجح عند علماء التفسير أن المكي ما نزل من القرآن قبل الهجرة والمدني ما نزل بعد الهجرة.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أ ـ قصر الآيات، والإيجاز الشديد، كثرة القسم بمشاهد الكون، تتخلل مقاطعها صيغ الإنشاء المختلفة من أمر ونهي واستفهام وتمنٍّ ورجاء، مما يضفي على الأسلوب طابع القوة والحرارة.

ب ـ الألفاظ والكلمات في الآيات المكية منتقاة يسري جرسها في الأحرف المهموسة تارة والمجهورة أخرى، والشديدة أحياناً والرخوة أحياناً حسب الموضوع المتحدث عنه، والفواصل الموزونة المقفاة تنساب أحياناً وتتموج أخرى وتقصف مرة وتدمر أخرى، والحكمة في هذا الأسلوب الشديد أن القرآن نزل يخاطب قوماً غافلين، تبلّد حسهم على موروثات الآباء والأجداد والتقاليد والعادات الجاهلية والتفاخر بها واطمأنوا إلى حياة الرغد والرفاه والبطر وبلهنية العيش، فهزّهم هذا الأسلوب هزاً عنيفاً لشد انتباههم إلى حقائق الكون وما يحيط بهم، وإثارة التساؤلات في أنفسهم حول الحكمة من وجودهم في الحياة ومآلهم بعد الموت، لإدراك واقعهم المنحرف المصادم للفطرة والعقل.

جـ ـ تجسيم المعنويات وتشخيص الجوامد وعرضها في صور ومشاهد تتسم بالحركة والحوار وإضفاء الحياة على الأشياء الصامتة، كل ذلك يحيل المشاهد إلى لوحات تعبيرية خلابة تترك الأثر العظيم في النفس وتنمي ملكة التذوق والإحساس وتسمو بالمشاعر الإنسانية وتهذبها. أما الموضوعات الرئيسة التي عولجت في هذه المرحلة فهي قضايا العقيدة الأساسية وهي:

١ ـ قضية الألوهية:

من خلال إثارة حملة عنيفة على المعتقدات الموروثة في اتخاذ الآلهة التي لا تملك لنفسها ولا لعابديها ضراً أو نفعاً بل لا حقيقة لها:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣].

ولإزالة قدسية الأصنام من نفوسهم وصفها بأنها رجس تستقذر وتجتنب: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي عاجزة عن كل مظاهر الحياة لأنفسهم أو لغيرهم فلا تطعم ولا تشفي ولا تجيب الدعاء:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٧].

بل إن هذه الآلهة المزعومة المقدسة في نظرهم عاجزة عن مقاومة أضعف المخلوقات وأحقرها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

إنَّ هذه الأصنام التي تعبد من دون الله تعالى تعطل الطاقات العقلية لدى عابديها وتسف بالمشاعر الإنسانية لديه وتحط بها إلى دركات البهيمية، فهم كالأنعام بل هم أضل.

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٤].

إن مصير هذه المعبودات المزيفة ومصير عابديها إلى النار.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۖ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٠].

بهذه الأساليب العقلية والأساليب التهكمية والأساليب التهديدية أزال

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

القرآن الكريم عن نفوس المؤمنين آثار الشرك والوثنية، والأصنام، وزعزع مكانتها في نفوس المشركين أنفسهم. وإلى جانب ذلك وفي الوقت نفسه، كانت الآيات تنزل لتبني عقيدة التوحيد الصافية المشرقة، وتَذْكر الله جلَّ جلاله بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص، وتقيم الحجج العقلية من خلال الآيات الكونية ومن خلال المشاعر الإنسانية النبيلة ومن الفطرة السليمة المهتدية، تقيم من خلال كل ذلك الأدلة والبراهين على وحدانية الله عزَّ وجلّ.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ١٠٣].

بمثل هذا العرض الشامل لصفات الجلال والجمال والكمال من خلال الاستعراض الكوني في السماوات والأرض وفي الجماد والنبات والحيوان والإنسان، ومن خلال بيان العلم المحيط بكل شيءٍ ومن خلال القدرة والتصرف في شؤون المخلوقات تبرز عقيدة التوحيد الفاعلة المؤثرة في تصحيح المفاهيم، المقومة للسلوك، المثيرة للعواطف والمشاعر النبيلة لدى الإنسان.

ومن خلال المقارنة بين عجز آلهتهم المطلق وإثبات القدرة التي لا يعجزها شيء لله عزَّ وجلّ رسخ القرآن الكريم عقيدة التوحيد بالبراهين العقلية المعتمدة على المحسوسات المشاهدة ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

وبمثل هذا التنويع في الأدلة والبراهين الدامغة أقام القرآن صرح عقيدة التوحيد النقية(١).

٢ ـ اليوم الآخر والبعث بعد الموت:

عرض القرآن الكريم في العهد المكي عقيدة البعث بعد الموت وما يسبقها من أحداث عظام تخل بالنظام الكوني بأسلوب مؤثر مفزع تقشعر له الأبدان ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ١٤].

إن هذه الأحداث العظام التي تقضي على مقومات الحياة على هذه الكرة الأرضية تضع نهاية لهذه الحياة الدنيا على الأرض فما المصير بعد ذلك؟!!.

---

(١) اشتملت آيات سورة النمل على خمسة أنواع من الأدلة على توحيد الله تعالى:
١ ـ دليل الخلق والإبداع الآية ٦٠.
٢ ـ دليل العناية الآية ٦١.
٣ ـ دليل الفطرة الآية ٦٢.
٤ ـ دليل إثبات صفات الكمال الآية ٦٣.
٥ ـ دليل البرهان العقلي الآية ٦٤.
انظر كتابنا (مباحث في التفسير الموضوعي)، ص١٦٢ وما بعدها.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٥].

إنه يوم البعث للحساب، فما الذي أحضرته النفس معها في هذا اليوم وما الذي قدّمته في حياتها الدنيا لمثل هذا الموقف، إنه يوم الحساب ووزن الأعمال ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١].

ولما كان البعث بعد الموت لا يتكرر في حياة الناس، ولم يتقدم له مثيل في حياتهم فقد تنوعت الأساليب القرآنية لإقناع الناس بإمكان ذلك فمن هذه الأساليب:

أ ـ التشبيه بإحياء النبات، فالدورة النباتية تتكرر أمام ناظر الإنسان كل عام، فالذي أحيا الأرض بعد موتها وبث فيها الزرع قادر على بعث الحياة في العظام، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

ب ـ الاستدلال العقلي عن طريق قياس الإعادة على الخلق أول مرة: فإنَّ إعادة الشيء على مثيل سابق أهون في عرف الناس وعاداتهم من الابتداء من غير مثيل، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٦ ـ ٦٨].

﴿ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٩].

ج ـ الاستدلال بأنَّ القادر على الأكبر قادر على الأصغر.

﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٩٨ ـ ٩٩].

د ـ قدرة الله التي لا يقف أمامها شيء، فإذا تعلقت إرادته وأمره بشيء فليس إلا أن يقول له كن فيكون ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

هـ ـ تنزيه الله عزَّ وجلّ عن صفات النقص عامة ومنها تنزيهه عن العبث المترتب على القول بعدم البعث والجزاء.

يقول جلّ ثناؤه: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتنزيهه عن العجز عن الإعادة بعد الموت للحساب والجزاء:

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٦ ـ ١٩].

و ـ سرد قصص إحياء الموتى على يد أفراد بقدرة الله تعالى مما يعطي نموذجاً على الإحياء الجماعي عندما يأذن الله بذلك:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ ﴾ [الكهف: ١٩].

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥].

وتستوفي الصورة آثارها في النفس وتؤدي دورها التربوي كاملاً بعرض القرآن الكريم صوراً لمصير المكذبين باليوم الآخر الذين خسروا ما أعدَّ الله لأهل الإيمان والتصديق بوعد الله في جنات النعيم، وخسروا عقولهم عندما ظنوا أنهم خلقوا عبثاً وأنهم لا يرجعون إلى الله، وخسروا أنفسهم وأهليهم عندما خلدوا في دار الشقاء ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١ ـ ٣٢].

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٥ ـ ١٦].

٣ ـ الإيمان بالنبوات والرسالات:

لقد بيَّن القرآن المكي سنّة الله في الرسالات وإرسال الرسل بأسلوب

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إقناعي في غاية الإحكام ولم يترك شبهة من الشبهات التي أثارها المشركون إلا وفنّدها وبيّن الحق.

أ ـ فالرسالات واحدة والهدف من إرسال الرسل واحد هو توحيد الله سبحانه وتعالى وترك عبادة الطواغيت. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

إن الرسالة ضرورية لمعرفة الإنسان الأمانة التي حملها. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولتحقق الحكمة التي خلق لأجلها الإنسان. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

إن الإنسان لا يستطيع أن يتعبد الله حسب اجتهاده، كما لا يستطيع أن يتصور صفات الكمال بعقله لينسبها إلى الله تعالى، ولا يستطيع أن يحدد صفات النقص لينزه الله تعالى عنها. فالرسالة ضرورية لرسم المعالم في التوحيد والعبادة.

ب ـ شمول الرسالات للأقوام والأمم كافة:

إن رحمة الله بالعباد واسعة ولطفه بهم عظيم، فلم يترك أمة أو قوماً إلا وأرسل فيهم الرسل...

﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

جـ ـ إرسال الرسل من البشر:

وذلك للقيام بمهمتهم خير قيام، ليكون أدعى لقبول القوم من الرسل

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المرسلين إليهم، فلو كانوا من غير جنس البشر لما أمكن اللقاء والفهم والإدراك ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَۙ﴾ [النحل: ٤٣].

إنّ العقائد والأحكام والمزايا الخلقية تحتاج إلى نموذج عملي يتمثلها سلوكاً في حياته ليكون قدوة للناس في كل ذلك. فكون الرسل من البشر يحقق هذا الأنموذج المثالي للالتزام والتطبيق.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فسنَّة الله جلَّ جلاله في الرسالات أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥].

د ـ إرسال الرسل من القوم وبلسانهم:

يقول جلَّ شأنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

إن الإنسان مجبول على إثارة الشكوك في الغريب البعيد والاطمئنان إلى المخالط القريب، ولذلك كانت الجهود التي يبذلها الأنبياء والمرسلون وهم بين أقوامهم تجد فرصاً أكثر حظاً في النجاح، وذلك أن القوم عندما يخاطبون بلغاتهم على لسان من عرفوا نشأته وأمانته وفطنته واستقامة سلوكه وسلامة تفكيره، هذه المعرفة حول الرسول ونشأته تدخل الطمأنينة على قلوب الناس إن لم يتخذوا موقف الإعراض والمقاومة عناداً، فإن وجدت الطمأنينة حول شخص الرسول وأخذ التفكير حظه من تدبر الوحي الذي جاء به الرسول، اكتملت مقومات الاستجابة للدعوة في نفوس المدعوين، ولذلك أمر القرآن الكريم أن يطالب رسول الله ﷺ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

القوم أن يتفكروا في واقعه من جهة ويتفكروا في دعوته من جهة ثانية إذا كانوا يريدون الحق ويبحثون عنه. ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس: ١٥ ـ ١٧].

هـ ـ مهمة الرسل: البلاغ والبيان:

والبلاغ بشقيه الرئيسين (الإنذار والبشارة).

﴿ ... إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿ ... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحجر: ٨٩].

﴿ ... لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦].

و ـ عموم رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿ ... إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۗ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧].

إن الإيمان بالرسل والرسالات من الأساسيات التي نزل القرآن المكي لترسيخها وتوضيحها ورد الشبهات حولها، وبيان سنن الله فيها وأن العاقبة لهم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

ويشكل موضوع الرسالة والرسل ومعجزاتهم محاور كثير من السور المكية.

٤ ـ الدعوة إلى أمهات الأخلاق وأصول العبادات:

دعا القرآن المكي ـ إلى جانب ترسيخ أصول العقيدة ـ دعا إلى الالتزام بأمهات الأخلاق والتخلي عن مرذولها.

ونظرة القرآن الكريم إلى الأخلاق منسجمة مع الشخصية الإسلامية المتميزة في العقيدة، وما الأخلاق الفاضلة إلا ثمراتٍ للعقائد ونتائج للالتزام السلوكي بأحكام القرآن الكريم، لذا فإن الهدايات القرآنية في العقائد ترافقها الدعوة إلى التحلي بالأخلاق وذلك لأن المنهج القرآني في تربية الشخصية الإسلامية منهج متكامل، فالله الذي خلق الإنسان وأودع فيه الفطرة المستقيمة أودع فيه أيضاً العواطف والمشاعر والأشواق الروحية والحاجات العضوية، ووضع المنهج الأمثل الذي يحافظ على استقامة الفطرة وينمي فيها نوازع الخير ويحدّ من أهواء النفس والشهوات ويهذب الغرائز ويسمو بها ويوجهه إلى الكمالات الإنسانية.

فيأتي الأمر الصريح بالأخذ بأمهات الأخلاق كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل: ٩٠ ـ ٩١].

وتأتي أحياناً آيات جمعت بين أصول العقيدة وأصول العبادات وأمهات الأخلاق في سياق واحد، لبيان أنها كلها من الهدايات التي أنزلها الله تعالى ولا فلاح بغيرها، كما نجدها في الوصايا العشر في سورة الأنعام، يقول جلَّ من قائل:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

هذه هي الأسس والمبادئ الأربعة التي لم تخل منها سورة مكية وربما اشتملت السورة ـ وبخاصة السور الطويلة ـ على جانب أو أكثر من هذه القضايا. فإذا أراد الباحث أن يحدد محور سورة من السور المكية فلينظر أولاً إلى المساحة التي شغلتها هذه القضايا منفردة أو مجتمعة وهل يمكن تناول السورة من خلال أحد هذه المواضيع وجعله محوراً للسورة؟.

إننا نجد كثيراً من السور المكية ركزت على أصل من أصول العقيدة فمثلاً سورة الأنعام تناولت جانب التوحيد وإقامة الحجج والبراهين عليها وخاصة من خلال أدلة الخلق والإبداع في الكائنات، وسورة النحل تناولت قضية التوحيد من خلال أدلة العناية حيث ذكرت نعم الله تعالى على العباد ما ظهر منها وما بطن في مختلف مجالات الحياة. وسورة يونس وهود وإبراهيم تناولت جانب الرسالة والنبوة من خلال قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمناقشات التي دارت بينهم وبين أقوامهم. للوصول إلى إثبات رسالة رسول الله ﷺ خاتم النبيين، ونجد أن سورة يـس وسورة (قّ) والقيامة من السور التي أقامت الحجج والبراهين على ثبوت اليوم الآخر والبعث بعدالموت للحساب والجزاء.

أما القرآن المدني:

فقد استمر التنزيل في العهد المدني لبيان أصول العقيدة وفروعها والرد على شبه الملحدين والمحرفين من الوثنيين وأهل الكتاب والدعوة إلى أمهات

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأخلاق على المستوى الفردي والاجتماعي، وبيان أصول العبادات وفروعها ويمكن أن نقول: إن القرآن المدني تناول كل ما تقدم من الموضوعات في العهد المكي، وزاد عليه في جوانب هي ما يتعلق بالبناء والحماية والصيانة للمجتمع الإسلامي، إلا أن التنزيل المدني كان له ميزاته في الأسلوب وفي التدرج في عرض الموضوعات.

أما الأسلوب البياني فقد امتاز بـ:

١ ـ الأسلوب الهادئ: وهوالأسلوب المنسجم مع طبيعة الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن المدني من التشريعات التفصيلية التي تبني الشخصية الإسلامية، وتحدد سلوكها في التعامل مع أفراد المجتمع الإسلامي في مختلف الطبقات وجميع الأحوال.

٢ ـ طول الآيات وتنوع المقاطع والفواصل المنسجمة مع الأسلوب الهادئ الرخيم. والتركيز على حِكَم التشريع في الأحكام والهدايات.

٣ ـ الإكثار من ضرب الأمثال والاعتبار بقصص المحرفين للوحي المنزل من بني إسرائيل ومن سار على خُطاهم من المنافقين في المجتمع الإسلامي، والأمثلة والشواهد كثيرة منوعة، فمثلاً من يقرأ آيات سورة البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والنور والأحزاب والحشر.. وغيرها يدرك الأسلوب المختلف عن المرحلة المكية.

أما الموضوعات التي عرضتها السور المدنية فقد اتسعت دائرتها وتنوعت تفاصيلها بحيث شملت نواحي الحياة كلها على مستوى الفرد والجماعة.

ولكن النقلة من عمومات العبادات وأصولها وأمهات الأخلاق جاءت متدرجة حسب المنهج القرآني في التربية.

فإننا لا نجد في المرحلة المكية الدعوة المباشرة إلى طاعة رسول الله ﷺ، وإنما يأتي الأمر بطاعة الأنبياء والمرسلين على ألسنة الأنبياء عند عرض الحوار بينهم وبين أقوامهم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أما في المرحلة المدنية فقد جاء التركيز على طاعة رسول الله ﷺ بشكل مباشر في آيات كثيرة وما ذاك إلا لإيجاد الأرضية الواسعة لتقبل الأوامر التفصيلية والشرائع التفريعية التي يوضحها التنزيل المدني ويطبقها رسول الله ﷺ عملياً في المجتمع، فنقرأ مثلاً في سورة النساء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤ ـ ٦٥].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

كما جاءت آيات كثيرة تحذّر من مخالفة أمر رسول الله ﷺ، وهذا التحذير يلتقي في النتيجة مع الأمر بطاعة رسول الله ﷺ، فالثمرة هو الالتزام بأحكام شرع الله، وأن تكون الحياة الإسلامية في المجتمع الإسلامي تحت أنوار الوحي، وفي إطار الهدايات الربانية فلا تصادمها ولا تخرج عن دائرتها، ونقرأ مثل هذا التحذير في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ومن شأن المؤمن أن ينشأ على حب الطاعة وكراهية المعصية ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وأخذت البيعة والعهود على المسلمين عامة وعلى النساء خاصة في عدم الخروج عن الطاعة وتجنب العصيان:

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وهذا التنويع في الأساليب لترسيخ طاعة الله ورسوله في النفوس وتكوين ملكة الانقياد عند المؤمنين لله ولرسوله، ومخالفة الهوى والشهوات والشبهات التي قد تثور من داخل النفس أو خارجها تجاه حكم الله وحكم رسوله.

وهذا هو الأسلوب الرباني في التربية المثلى، فبعد أن ترسخت العقيدة الإسلامية في النفوس وأصبحت الموجهة للأقوال والأفعال والسلوك عامة، جاءت التشريعات التفصيلية لتكمل صرح البناء الاجتماعي وتصونه من عبث العابثين من الداخل وتضع السياج الواقي من هجمات الأعداء المتربصين في الخارج.

جاءت التشريعات الإسلامية لتؤكد على الروابط الاجتماعية وتشد من أواصرها لكيلا تبقى الشخصية الإسلامية شخصية متميزة معزولة، بل تكوّن مؤسسات اجتماعية مترابطة متلاحمة نواتها الأسرة وتتسع الدائرة لتشمل المجتمع الإسلامي المتماسك بكلِّ هيئاته.

فنجد تشريع الجهاد، وأحكام الزكاة والصيام متلاحمة مع أحكام الصلاة والبيوع إلى جانب أحكام الوصية والإرث والقصاص والحدود، والنكاح والطلاق والعدة بالإضافة إلى تشريعات العهود والمواثيق بين المسلمين وغيرهم في السلم والحرب.

وباختصار أضاف القرآن في المرحلة المدنية:

أ ـ الآيات التي نزلت بالتشريعات التفصيلية لتنظيم شؤون المجتمع الإسلامي وبنائه بناءً راسخاً قوياً.

ب ـ صيانة هذا المجتمع الإسلامي من الداخل بإنزال الآيات المتعلقة بالمنافقين وكشف دخائل نفوسهم وحقيقة مشاعرهم تجاه المؤمنين وقياداتهم،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتعرية مخططاتهم وتآمرهم على الدولة الإسلامية. ومحاولاتهم زعزعة ثقة المؤمنين برسولهم ﷺ.

جـ ـ حماية المجتمع الإسلامي من أعداء الخارج بإنزال آيات الجهاد والتشريعات الخاصة بعلاقة الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول والشعوب التي تخضع للحكم الإسلامي(١).

وكثير من هذه التشريعات التفصيلية تحتاج إلى السلطة المنفذة لها، ولما كانت السلطة في المرحلة المكية بيد غير المسلمين، لم يكن من الحكمة إنزالها والمسلمون عاجزون عن تنفيذها، أما في المرحلة المدنية فقد وجدت السلطة الإسلامية القادرة على التنفيذ، فكان الوقت المناسب والمكان المناسب لنزولها وهي كلها تدور حول ما أطلق عليه العلماء الكليات الخمس وحمايتها (الدين، العقل، العرض، النفس، المال). ولا تخلو سورة مدنية من قضية أو أكثر من هذه الموضوعات فمن أراد تحديد محور سورة مدنية فعليه أن يضع نصب عينيه هذه القضايا بالإضافة إلى الموضوعات التي ذكرت في المرحلة المكية.

● الثالث ـ التعرف على محور السورة من المناسبات بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

أهمية الفواتح والخواتيم:

افتتاح الكلام بعبارات موجزة بليغة تشتمل على معان جليلة، أسلوب رفيع من الأساليب العربية المعهودة التي درج عليها الكاتبون قديماً وحديثاً، وهو الأسلوب المناسب للفطرة الإنسانية.

---

(١) ملحوظة: ورد ذكر بني إسرائيل في المرحلة المكية أُنموذجاً لأمة اختارها الله لرسالته وأسند إليهم القوامة عليها، ولكنهم عصوا وتمردوا وخالفوا، فكانت النماذج المنحرفة في عقائدها عن جادة الحق واستكبارها وعنادها على أوامر ربها. وفي المرحلة المدنية جاء ذكر اليهود أيضاً ولكن كان التركيز على انحرافاتهم في الشرائع التفصيلية وتحريفها وتبديلها وكتمانها، وقتلهم الأنبياء الذين كانوا يأمرونهم بالحق وينهونهم عن المنكر، وغير ذلك من المواقف الشائنة لهم تجاه شرائعهم. انظر (معالم قرآنية في الصراع مع اليهود)، ص ٦٥ وما بعدها.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول السيوطي: «قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأنق في أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأحسنه نظماً وسبكاً، وأصحه معنىً وأوضحه، وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس أو الذي لا يناسب»[1].

وقُل مثل ذلك في خواتيم الكلام فينبغي أن ينتهي الكلام بمقاطع بارعة وافية بالغرض، تهتز لها النفوس، وتستشرفها العقول، وكذلك لأن ختام الكلام هو آخر ما يقرع الأسماع، فيحسن أن يتضمن من المعاني البديعية ما يؤذن السامع بانتهاء الكلام، حتى لا تتشوف النفس إلى ما يذكر بعد[2].

وبراعة الاستهلال في سور القرآن، وحسن الاختتام فيها مما يدركه من له أدنى بصيرة في أساليب لغة العرب. حيث تأتي في الغالب افتتاحية السور مشتملة على أهم أغراض السورة وأهدافها ثم يأتي تفصيل هذا الإجمال في مقاطع السورة، ثم تختتم السورة بخاتمة تعتبر ملخص ما جاء في السورة وتؤكد الافتتاحية وما ورد فيها.

والمناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها تكون واضحة في أغلب سور القرآن وخاصة السور الطويلة والمتوسطة سواء كانت السور مكية أو مدنية، وفي الغالب تركز الافتتاحية على قضية أو بعض القضايا، ثم تأتي مقاطع السورة لتفصل إجمال القضية وتأتي الخاتمة فتبرز الجوانب الهامة في القضية.

وإننا لنستشف مثل هذا التناسب بين الافتتاحية والخاتمة في قول رسول الله ﷺ عن سورة الكهف:

«من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف كانت له عصمة من الدجال»، وفي رواية أخرى: «من قرأ عشر آيات من آخر سورة الكهف كانت له عصمة من الدجال».

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٠٦.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٠٧.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن نعتقد أن الروايتين الصحيحتين مقصودتان وليس فيهما شيء من خطأ الرواة أو الشذوذ في الرواية[1].

بل نقول: إن رسول الله ﷺ كان متعمداً في ذكر العشر الأوائل والعشر الآواخر من السورة، لأننا عند دراسة افتتاحية سورة الكهف وخاتمتها نجد الموضوعات هي نفسها وردت هنا وهناك.

فالحديث عن الكتاب ومنزله والمنزل عليه وموقف الناس منه في الدنيا ومصيرهم في الآخرة في افتتاحية السورة، وتكرر ذلك كله في خاتمة السورة.

لذا نستطيع أن نقول: إن محور سورة الكهف هو تصديق الرسول ﷺ في رسالته (الكتاب المنزل عليه).

ولو استعرضنا المقاطع الخمسة الواردة بين الافتتاحية والخاتمة لوجدنا كلها تدور حول هذا المحور[2].

وفيما يلي جملة من الأمثلة على تحديد محور بعض السور من خلال افتتاحية السور وخواتيمها:

١ ـ سورة الأنعام:

اشتملت افتتاحية سورة الأنعام على الدعوة إلى توحيد الله عزَّ وجلّ خالق السماوات والأرض وجاعل الظلمات والنور، وخالق الإنسان من طين، الإله في السماوات والأرض عالم السر والجهر.

كما تضمنت الافتتاحية بيان موقف المشركين المكذبين لرسول الله رغم

---

(١) حكم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني على رواية الإمام مسلم «من قرأ عشر آيات من آخر سورة الكهف كانت له عصمة من الدجال» بالشذوذ، وهذا تسرّع من الشيخ رحمه الله وغفر له، ولو تدبر أقوال المفسرين في المناسبات بين افتتاحيات السور وخواتيمها لأدرك الحكمة من الرواية.
انظر كتابه: (قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتله إياه)، ص٣٣، ط١٤٢١هـ.

(٢) انظر كتابنا مباحث في التفسير الموضوعي، ص١٨٠ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأدلة الباهرة التي تؤكد صدقه وتبرهن على توحيد الله عزَّ وجلّ.

فالألوهية والرسالة وموقف المكذبين هي مواضيع افتتاحية الأنعام.

واشتملت خاتمة سورة الأنعام على الموضوعات نفسها، حيث بيَّنت أن أمر الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً إلى الله عزَّ وجلّ وسيحاسبهم عليه، وأمر رسول الله ﷺ أن يبين لهم أنه على الصراط المستقيم ملة إبراهيم عليه السلام البريء من المشركين، وأن يتوجه بعبادته ونُسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، ولا يبغي سواه رباً، وأنه ليس مسؤولاً عن مصير أولئك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وبذلك يظهر لنا جلياً أن محور السورة يدور على إثبات توحيد الله ورسالة رسول الله وموقف المشركين منهما[1].

٢ ـ سورة الأعراف:

وافتتاحية سورة الأعراف تتحدث عن الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ ومهمته في الإنذار به وعدم التحرج والضيق بذلك لأنه مهمة المرسلين، ويوم القيامة سيسأل المرسلون وسوف يسأل الذين أرسل إليهم للفصل بينهم.

إذن موضوعات الافتتاحية: الرسالة، ومهمة الرسول، وسؤال الناس، ومحاسبتهم على مواقفهم من ذلك.

وبعد الجولات الهائلة في القرون ومواقف الأقوام من أنبيائهم وخاصة بني إسرائيل والعهود والمواثيق التي أخذت عليهم للإيمان بالنبي الأمي الذي يجدون أوصافه في التوراة والإنجيل...

تختتم السورة بأمر رسول الله ﷺ أن يعفو عن الجاهلين المعرضين عن دعوته الذين لا يلقون بالاً للإنذار والتحذير، وإن نزغه نزغ من الشيطان فليلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى ليحميه من الاستجرار إلى مواقف لا تليق بالرسالة، فإن من شأن المكذبين أن يطلبوا الخوارق والمعجزات لا لاستجلاء الحق وإنما

---

(١) كتب الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني كتابين أحدهما: الألوهية كما تصورها سورة الأنعام، والثاني: النبوة كما تصورها سورة الأنعام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للتعجيز، فتبين لهم أن القرآن هو البصيرة وهو الآية، فإذا قرئ القرآن فليستمعوا له ولينصتوا إذا أرادوا أن تشملهم رحمة الله تعالى وهدايته، فمن كانت فطرته سليمة ورغبته في الحق صادقة فسوف يسجد لله ولن يتكبر على عبادته كما هو الشأن عند عباد الله المصطفين.

نستطيع إذن أن نقول: إن محور سورة الأعراف هو مهمة الرسول التي هي الإنذار والبلاغ ومحاسبة الناس على مواقفهم من ذلك.

٣ـ سورة الأنفال:

وتحدثت افتتاحية سورة الأنفال عن الحادثة العارضة التي وقعت بين الصحابة من المهاجرين والأنصار بسبب الغنائم في غزوة بدر، وبيَّنت الافتتاحية: أن حكم الأنفال لله وللرسول، وعليهم أن لا يفسدوا ذات بينهم بسبب متاع الحياة الدنيا وأعراضها الزائلة، وتحدثت الآيات في الافتتاحية عن رسوخ الإيمان في قلوب المؤمنين الصادقين وأن وشائج الإيمان أقوى من أن يغيرها أو يؤثر عليها مال أو عرض دنيوي.

وتحدَّثت الخاتمة عن الولاية بين المؤمنين المهاجرين والمؤمنين الأنصار الذين آووا ونصروا، أما الكفار فبعضهم أولياء بعض، وجاء الثناء على المهاجرين والأنصار مؤكداً أن إخوتهم في الله وولاءهم لبعضهم لم يتأثر بالموقف الطارئ الذي جرى بينهم بسبب الأنفال.

فمحور السورة إذن يدور على ترسيخ وشائج الإيمان في النفوس والولاء والبراء على أساس العقيدة وقطع الوشائج الأخرى التي تصطدم بالعقيدة، وعدم تأثير الأعراض الدنيوية الطارئة على الأخوة الإيمانية.

٤ـ سورة التوبة:

وافتتحت سورة التوبة بالبراءة من المشركين، ودعتهم إلى العودة إلى حظيرة الإسلام، فإذا انسلخت الأشهر التي أجّلوهم إليها ولم يؤمنوا أُمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم وليقعدوا لهم كل مرصد...

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

واختتمت السورة بأمر المؤمنين بقتال الكفار الذين يلونهم والغلظة عليهم لأنهم لم يلقوا بالاً للكتاب المنزل، ولم يتعظوا بما يصيبهم من الفتن في كل عام مرة أو مرتين، ولم يقدروا نعمة الله عليهم بإرسال الرسول إليهم، وقد اختاره منهم يعلمون صدقه وأمانته وحرصه على هدايتهم، فإن لم ينفعهم كل ذلك فليقل حسبي الله فنعم المولى ونعم النصير.

فإذن محور سورة التوبة حماية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي من الأعداء في الخارج وصيانته من الداخل من أراجيف المنافقين وتخاذلهم وفتنهم وإعلان الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وإعلان البراء من أعداء الله من الكفار والمنافقين.

٥ ـ سورة يونس:

وافتتحت سورة يونس بالحديث عن رسول الله الموحى إليه من ربه لإنذار الناس وبشارة المؤمنين بأن لهم قدم صدق عند ربهم، وتحدثت الافتتاحية أيضاً عن موقف الناس المتعجب من الرسول ومن مضمون الرسالة الداعية إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر الذي يجدون فيه الحساب على ما قدَّموه في الحياة الدنيا.

واختتمت السورة بتوجيه نداء من الرسول إلى الناس، وإعلامهم أنهم إن كانوا في شك مما جاءهم به فإنه ماضٍ على عبادة الله الواحد الذي يتوفى عباده ومصيرهم إليه يوم القيامة، وأنه بريء من الشركاء وأتباعهم وأنه يعبد الذي بيده الضر والنفع، وأمر إلهي لنبيه باتباع ما يوحى إليه من الحق والصبر عليه حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. فمحور السورة كما يظهر من الافتتاحية والخاتمة يدور حول تثبيت رسول الله ﷺ على المضي قدماً في تبليغ رسالة ربه، وعدم الاهتمام بما يعرض سبيله من عقبات من المشركين.

٦ ـ سورة هود:

وافتتحت سورة هود بالحديث عن الكتاب المنزل على رسول الله الذي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أحكمت آياته ثم فصلت، وقد اشتمل الكتاب على الدعوة إلى توحيد الله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء وإنذار المعرضين عن التوحيد بسوء العاقبة.

واختتمت السورة بالحديث عن مضمون الكتاب الذي اشتمل على أنباء الرسل لتثبيت قلب الرسول على دعوته، وهو الحق المنزل وفيه الموعظة والذكرى للمؤمنين، كما تضمنت الخاتمة تهديد الكافرين الذين لم يرفعوا رأساً للوحي المنزل، فإلى الله المرجع والمصير وما هو بغافل عما يعمل العباد.

فمحور سورة هود إذن الوحي المنزل الداعي إلى توحيد الله تعالى، وإنذار المشركين بالعاقبة السيئة يوم القيامة إن لم يؤمنوا بمضمون ما أنزله الله تعالى على رسوله.

٧ ـ سورة يوسف:

افتتحت سورة يوسف بالحديث عن الكتاب المنزل المشتمل على أحسن القصص الذي لم يكن لرسول الله عهد به قبل هذا الوحي.

واختتمت السورة ببيان العبر في قصص الأقدمين ينتفع بها أولوا العقول النيرة، فليست هذه القصص حديثاً مفترى وإنما هو وحي من الله تعالى مطابق لما كان معلوماً لدى أهل الكتاب بل فيه تفصيلات لم يكن أحد على علم به.

فمحور سورة يوسف إذن هو العبر والعظات من قصص السابقين لتكون منارات ومعالم للدعاة إلى الله في كلّ عصر[1].

٨ ـ سورة الرعد:

افتتحت سورة الرعد بالحديث عن الكتاب المنزل بالحق المشتمل على

---

(١) كتب أحد طلابنا النجباء واسمه ماجد بن علي الماجد بحثاً في السنّة المنهجية في قسم القرآن بعنوان: **الابتلاء من خلال سورة يوسف عليه السلام**، أوردفيه لطائف واستنباطات مفيدة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أدلة التوحيد من الكون المحيط بالإنسان: السماوات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر والذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً إلى الثمرات المزدوجة وتغشية الليل النهار...

وجاءت خاتمة سورة الرعد تلفت النظر إلى ما يجري على الكرة الأرضية من إنقاصها من أطرافها، فخالق الكون هو المدبر لأمره ولا معقب لحكمه، وإذا كان الكفار يمكرون ويتحايلون في أمور دنياهم فلا يخرج مكرهم عن أمر الله وتدبيره، وسيعلم الجميع لمن العاقبة فإن لم يؤمن هؤلاء بكل هذا الذي أوحاه الله إليك، وركبوا رؤوسهم، وقالوا لست مرسلاً، فدعهم وشأنهم، وقل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب.

فمحور السورة إذن يدور حول مضمون الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وهو توحيد الله والأدلة عليه من الكون المحيط بالإنسان.

٩ ـ سورة إبراهيم:

افتتحت سورة إبراهيم بالحديث عن مهمة رسول الله ﷺ وهي إخراج الناس من ظلمات الشرك والضلالة بإذن ربهم إلى نور الهداية والتوحيد ووسيلة هذا الإخراج الكتاب المنزل بلسان القوم.

واختتمت السورة بالتأكيد على تنفيذ وعد الله رسله بنصرهم على الأقوام فإما أن يتحقق على أيديهم هداية القوم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، أو الانتقام منهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد عندما يؤتى بالمجرمين مقرنين في الأصفاد. ألا فليعلم الناس جميعاً أن هذا القرآن بلاغ وإنذار لهم فليعلموا أنما هو إلـه واحد فلا ملجأ إلا إليه.

فمحور سورة إبراهيم عليه السلام هو بيان مهمة الأنبياء والرسل من البلاغ والإنذار وبذل الجهد لإخراج الناس من الشرك إلى التوحيد وسنن الله في ذلك.

١٠ ـ سورة الحجر:

افتتحت سورة الحجر بالحديث عن القرآن، وموقف الكافرين المترددين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تجاهه، لأنهم استمرؤوا العيش والجمود على عادات الآباء الجاهلين فلا يريدون التحول منها إلى حياة الجد والكفاح والدعوة.

وكذلك موقفهم (اللامبالي) بالرسول حيث لم يكلفوا أنفسهم بالتفكير في واقعه ولا التفكير بما جاءهم به من الكتاب المبين. وإنما اتهموه بالجنون وطلبوا إنزال الملائكة ليصدقوه.

وجاءت خاتمة السورة بأمر رسول الله بالإعراض عن هؤلاء التافهين، والاستمرار بدعوته فإن الله سيكفيهم، وإذا ضاق صدره بما يتهمونه به من الجنون وغيره، فليلجأ إلى تسبيح الله والسجود له والاستمرار على عبادته، فإن في اللجوء إلى الله شعوراً بالطمأنينة والقوة وتزوداً بالغذاء الروحي للاستمرار في الدعوة إلى الله.

فمحور سورة الحجر إذن هو تثبيت قلب رسول الله ﷺ للاستمرار في دعوته. وعدم الالتفات إلى المستهزئين المترددين.

هذه عشرة نماذج لافتتاحيات سور وخواتيمها، منها السور المكية ومنها السور المدنية، وكلها تذكر في الافتتاحية موضوعات تكررها في الخاتمة وقد قصدت إلى أخذها بالترتيب لأن المناسبات بين الافتتاحية في كل سورة مع خاتمتها بارزة في كل السور القرآنية من الطوال والمئين والمثاني، بل حتى في طوال المفصل[1] فهو أسلوب قرآني مطرد فلا مناص لمن أراد أن يبحث عن محور السورة من المقارنة بين افتتاحيتها وخاتمتها.

---

(١) سجل الباحث عبد العزيز بن محمد الخضيري أطروحته في الدكتوراه بعنوان: (**افتتاحيات السور وخواتيمها: أنواعها، ودلالاتها، المناسبات بينها**). وقد أجاد كثيراً في رسالته وسدت جانباً هاماً في خدمة الموضوع. نوقشت الرسالة بتاريخ ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ وأُعطي مرتبة الشرف الأولى، وأوصت لجنة المناقشة والحكم بطبع الرسالة وتبادلها مع الجامعات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

● **الرابع ـ التعرف على محور السورة من الموضوعات المعروضة والأحداث المذكورة في مقاطع السورة:**

سبق أن أشرنا إلى أن افتتاحية السورة تشتمل على الموضوعات الأساسية وتكررها الخاتمة وتؤكد عليها أو تبني عليها، فالموضوعات تأتي في الافتتاحية لتلفت الأنظار إلى الخطوط العريضة في السورة وتأتي الخاتمة كالتلخيص للأفكار أو الموضوعات.

وتأتي المقاطع لتفصيل الإجمال في الافتتاحية أو إقامة الأدلة والبراهين على موضوع أو أكثر وردت الإشارة إليه في الافتتاحية، وكثيراً ما تشتمل المقاطع على استطرادات أو تعقيبات على هذه الموضوعات.

ولكنّ المتأمل في هذه المقاطع يجدها تمتّ برابط أو أكثر إلى المحور وتصب في المجرى الأساس للسورة، ولا يغيبن عن أذهاننا أن السورة يمكن أن تشتمل على أكثر من محور وأكثر من موضوع، وزاوية الدراسة هي التي تحدد المسار للمحور الذي نريد إبرازه، وإذا كانت المقاطع واضحة المعالم في ارتباطها بالافتتاحية والخاتمة، فينبغي أن تبرز ملامح المحور بشكل أو بآخر من خلال مقاطع السورة، فإذا كانت المقاطع تتحدث عن الخلق والمخلوقات في هذا الكون: من السماوات والأرض والبحار والمحيطات والرياح والسحاب وتبرز كونها مخلوقة لخالق، فنستطيع أن نستشف من خلالها أن هذه الدلائل مسوقة لإقامة الأدلة على توحيد الله سبحانه وتعالى. أما إذا كانت المقاطع تتحدث عن الدورة النباتية وقدرة الله التي لا يقف أمامها شيء الذي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ثم يتحدث مقطع عن مصير الناس وحسابهم في اليوم الآخر، وتتحدث عن مناقشات جرت بين الأنبياء وأقوامهم حول يوم الحساب فنستشف عندئذٍ أن محور السورة يدور حول البعث بعد الموت.

ونسوق فيما يلي أمثلة تطبيقية لجملة من السور نحاول التعرف على محاورها من خلال المقاطع والأحداث التي وردت في السورة، ونختارها من غير السور التي سبق تحديد محاورها من جوانب أخر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١ ـ سورة النحل :

لقد تحدثت سورة النحل عن نعم الله الكثيرة الظاهرة والباطنة على الإنسان والنعم المادية والمعنوية، فابتداء بنعمة الخلق والإيجاد وخلق الأنعام وتسخيرها وتذليلها لهم، وإنزال الماء من السماء لإنبات الأعشاب والأشجار والثمار، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وتسخير البحر ومحتوياته، وترسيخه الأرض وتفجير الأنهار فيها.

ثم تتعرض السورة لموقف المشركين المنكرين لتوحيد الله المفترين على الله الكذب، والمكذبين للقرآن وتبين مصيرهم كسابقيهم إلى جهنم.

وتتحدث عن مصير المؤمنين بالقرآن وترحيب الملائكة بهم في جنات النعيم وتتحدث عن المخلوقات غير الثقلين كيف توحِّد الله وتسجد له، لكن كثيراً من الإنس يستكبرون عن توحيد الله وعبادته.

وعلى الرغم من نعم الله على عباده التي لا تحصى يتخذون معه شركاء ويتصرفون تجاه بعض النعم بأسلوب سيِّئ كتعاملهم مع الإناث عند بشارتهم بهن.

وتتعرض السورة لإنزال الماء وإحياء الأرض بعد موتها، والعبر العظيمة مما يخرج من بطون الأنعام من اللبن السائغ للشاربين، وما أنعم الله به من ثمرات النخيل والأعناب، وما سخر الله من النحل بجني الرحيق وإنتاج العسل. ثم التذكير بنعمة الزوجية والبنين والحفدة، وتبين السورة ما أنعم الله به على عباده من السكن واتخاذ جلود الأنعام بيوتاً، وتذكر عاقبة الذين أنكروا هذه النعم كلها يوم القيامة يوم يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم.

ثم يأتي الحديث عن النعمة العظمى على الإنسان بإنزال القرآن تبياناً لكل شيءٍ، ثم تستعرض السورة موقف الجاحدين المنكرين للقرآن الكريم الذي يثيرون حوله الشبهات فهم المطبوع على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم وهم الخاسرون في الآخرة، ثم يفتح باب التوبة لمن أقلع عن الإنكار والتكذيب وأصلح نفسه ومعتقده وسلوكه فإن الله غفور رحيم، وتختم السورة بالأمر بالدعوة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

إن الآيات في سورة النحل لم تدع مجالاً في الحياة ولا جانباً من جوانب الكون إلا ذكرته وبيّنت نعم الله من خلاله على الإنسان ولم تترك مشهداً من مشاهد الآخرة المؤثرة إلا ساقته ترغيباً وترهيباً للإنسان ليقدّر الله حق قدره، فيقلع عن اتخاذ الشركاء والأنداد، وليؤدي شكر الله على آلائه ونعمه على عباده، ويتخذ إبراهيم عليه السلام قدوة له في ذلك.

فمن خلال هذا العرض السريع نستطيع أن نقول: إن محور السورة يدور حول إقامة الأدلة على توحيد الله تعالى من خلال النعم التي أنعم الله بها على عباده فهي في مجملها مستعرضة لأدلة العناية على توحيد الله.

٢ ـ سورة الإسراء:

سورة مكية فهي تتناول في جملة مقاطعها الموضوعات الأساسية للسور المكية وهي التوحيد والوحي والبعث بعد الموت.

ولكن أكثر مقاطعها تتناول قضية الوحي والرسالة بشكل واضح فيمكن أن نستعرض المقاطع كما يلي:

ـ تحدثت الافتتاحية عن حادثة الإسراء والمسجد الأقصى، الذي كانت له صلة بكتاب موسى وقومه بني إسرائيل عندما كان الأقصى عاصمة ملكهم، فأفسدوا وعلو علواً كبيراً فجاءهم الهلاك والدمار، وبيان سنة الله فيهم إن عادوا إلى الإفساد والعلو في الأرض ـ وهل يكون مرتبطاً باتخاذ الأقصى عاصمة لهم وإقامة هيكلهم فيه؟.

ثم تشير السورة إلى القرآن وهدايته للتي هي أقوم، وكأنه تعقيب على إفساد بني إسرائيل وأن المخرج لهم من ذلك ومن المصير السيِّئ هو اتباعهم لهذا القرآن. وعلى ذكر القرآن ومن باب بيان أهدافه الأساسية وهو من سنن الله في المجتمعات: التبعة الفردية في الهدى والضلال، وقاعدة التبعة الجماعية في التصرفات والسلوك.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ـ ويأتي بعد ذلك الحديث عن القاعدة الأساسية التي ينبغي أن تقوم عليها دعائم المجتمع الإسلامي، وهو توحيد الله سبحانه وتعالى والإحسان في التعامل مع الأقربين والأبعدين والتحلي بالأخلاق الرفيعة والترفع عن السفاسف، والالتزام بالسلوك القويم في التعامل مع الناس.

ـ وفي المقطع الثالث يأتي الحديث عن معجزة رسول الله المعنوية التي تتضاءل بجانبها جميع المعجزات المادية وخوارق العادات التي تدرك بالحواس، لذا كان طلبهم المعجزات المادية في غير موقعه وبين أيديهم القرآن. ويعقب على هذه المطالب بمكايد الشيطان الذي اتخذه المشركون قدوة لهم فتمردوا كما تمرد الشيطان على السجود لآدم فطرد من رحمة الله.

ـ وفي المقطع الرابع تستعرض السورة كيد المشركين ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ عن بعض ما أُنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة، ويأتي الأمر للرسول بالاستمرار على دعوته وتبليغ رسالة ربه، ولا يلتفت إلى اقتراحات القوم ومضايقاتهم، فمثلهم في ذلك كمثل من تقدمهم من الأمم كبني إسرائيل الذين كفروا بالحق الذي جاءهم به موسى، وأخذ العهد عليهم للإيمان بالقرآن، ولكن الذين أوتوا العلم من بني إسرائيل يدركون صدق الرسول وحقيقة القرآن ونزوله من عند الرحمن الواحد الأحد الذي يستحق الحمد المطلق لإنزاله الكتاب الحق.

ومن خلال استعراض المقاطع في سورة الإسراء نستطيع أن نقول: إن محورها الأساس يدور حول دلائل النبوة وصدق الرسول فيما جاء به من الوحي، وبيان موقف المشركين منه، والتمثيل لهم بالمثل السيِّئ المتقدم عليهم وهم بنو إسرائيل.

٣ـ سورة الكهف:

سورة الكهف سورة مكية وأهدافها وأغراضها لا يخرج عن أهداف السور المكية عامة وهي أصول العقيدة وأمهات الأخلاق، إلا أننا نلحظ في الافتتاحية ذكر العبد الذي أنزل عليه الكتاب وتحديد مهمته في الإنذار والبشارة، وموقف

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المشركين منه، ومقولتهم الباطلة في إسناد الولد إلى الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وتكررت تلك الموضوعات في خاتمة السورة أيضاً.

واستعراض المقاطع الخمسة في السورة نجد أن المقطع الأول وردت قصة أصحاب الكهف فيه، والمقطع الثاني وردت قصة صاحب الجنتين بعد أن قدم لها بمقدمة تتعلق بواقع المشركين، والمقطع الثالث تعرض لمصير المكذبين يوم الحساب وكشف الصحائف وإقامة الدلائل الدامغة.

والمقطع الرابع كان فيه ذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام وما جرى لهما. أما المقطع الخامس فكان عن قصة ذي القرنين، ثم تأتي الخاتمة لتؤكد الموضوعات والمبادئ التي افتتحت بها السورة، ولو أردنا أن نحدد المحور الأساس لسورة الكهف، فإننا نجد موضوع الرسول وتصديقه هو المحور والهدف الأساس في السورة، وأن المقاطع كلها تدور حول ذلك بعد الاطلاع على الروايات في أسباب نزول السورة وما تضمنتها من تعقيبات واستطراد، فالمقطع الأول (قصة أصحاب الكهف) والمقطع الأخير (قصة ذي القرنين) كانتا جواب سؤال مباشر من المشركين وبتلقين اليهود لهم للتحقق من صدق الرسول: اسألوه عن فتية خرجوا في الزمن الغابر وكان من أمرهم عجب، واسألوه عن رجل طواف في الآفاق وكان من أمره عجب[1]...

أما المقطع الثاني (قصة صاحب الجنتين مع مقدمتها) فكانت توبيخاً لقريش على تصرفهم، لتركهم الأسلوب العقلي الصحيح للتأكد من صدق رسول الله، وهو النظر في حياته ونشأته وعقله وسلوكه وأخلاقه، فإن كان يشينه شيء من ذلك حكموا عليه بغير الصدق، وإن كانت سيرته طاهرة نقية، وعقله كاملاً، وأخلاقه رفيعة، حكموا بصدقه وأمانته، فهم مصدر الحكم، فلماذا يلجؤون إلى اليهود للتحقق من صدق رسول الله. وهم أعلم الناس به؟!.

---

(١) انظر في ذلك السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣٩؛ ولباب النقول للسيوطي، ص١٥٦؛ وتفسير الطبري: ١٥/ ١٢٨٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والوسيلة الثانية للتحقق من صدق رسول الله الانكباب على دراسة ما جاء به من الوحي المنزل عليه وما احتوى من قضايا وموضوعات، وما تحداهم به، وهم أهل اللسان والبلاغة الذين لايشق لهم غبار في ذلك، فيدركون من خلال دراسة القرآن الكريم، هل هو من مصدر بشري أو مصدره رباني لا يطيقه البشر؟!.

ولكن الدافع الخفي لتصرف قريش هو الغفلة واتباع الهوى، واللجوء إلى متاع الحياة الدنيا ومقاييسها التافهة، فعطلت ملكة التفكير لديهم، وبلدت الحس والذوق الرفيع عندهم، فمثلهم كمثل صاحب الجنتين المغتر بماله ونفره...

وجاء المقطع الثالث لبيان حقيقة الأمور والأعمال، ولإبراز القيم الحقيقية عندما يحشر الناس كما خلقوا لأول مرة، وتوضع الموازين القسط وتنشر صحائف الأعمال التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا دونت فيها.

ثم يأتي المقطع الرابع توبيخاً لليهود الذين لم يرشدوا القرشيين الأميين إلى الطريق الصحيح للتثبت من صدق الرسول، وهم أهل كتاب ويعلمون أن الأسئلة التعجيزية ليست الأسلوب المناسب للتحقق من صدق الرسل وصحة دعوتهم، فهذا موسى عليه السلام، وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل، لم يعلم ثلاثة أحداث وتأويلها حتى فسَّرها له الخضر عليه السلام، ولم يؤثر ذلك على مكانة موسى عليه السلام وصدقه في رسالته، ولم تكن مجالاً للأخذ والرد عند أتباعه ولا عند غيرهم من الأمم، فلماذا يلجأ اليهود إلى هذا الأسلوب؟![1].

من خلال هذا الاستعراض السريع للمقاطع الخمسة لسورة الكهف ندرك أن محور السورة الأساس هو **إثبات صدق رسول الله ﷺ في دعوته ورسالته**.

٤ ـ سورة مريم:

سورة مريم سورة مكية فمحورها الأساس لا يخرج عن موضوعات المرحلة المكية وهي أصول العقيدة وأمهات الأخلاق.

---

(١) لمزيد من الدراسة حول سورة الكهف انظر كتابنا في التفسير الموضوعي، ص١٦٩ وما بعدها.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فتبدأ السورة بذكر قصة زكريا عليه السلام ولجوئه إلى ربه، وقد بلغ من الكبر عتياً أن لا يتركه فرداً وأن يهب له ولداً زكياً.

ثم يأتي الحديث عن مريم عليها السلام وولادتها العجيبة وولدها المتكلم في المهد صبياً.

ويأتي المقطع الثالث في الحديث عن جانب آخر من الصلة بين الولد والوالد من خلال الحوار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، والصلة بين القرابات والأرحام من خلال موسى عليه السلام وأخيه هارون، وإسماعيل وأمره أهله بالصلاة والزكاة، والتذكير بالذرية من أهل الصلاح آدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل القائمين على أمر الله ودعوته وعبادته.

إلاّ أن للخلف موقفاً مختلفاً عندما أسند الأمر إليهم، حيث أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ولكلٍّ مصيرٌ ينتظره يوم القيامة.

ثم يأتي المقطع الرابع بالتعقيب على تلك المقاطع والقصص بالوحدانية لله الواحد الأحد الذي يستحق العبادة بلا شريك.

ثم يأتي المقطع الخامس بالإنكار على الذين غرتهم الحياة الدنيا ومنتدياتهم الفاخرة عن التفكير في واقعهم، وعجزهم عن النفاذ من عقوبة الله المدمرة لهم كما دمرت من قبلهم ولكن الحقيقة تبرز لهم عندما يرون ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة.

ثم يأتي المقطع السادس ليبين ثورة الكون واختلال نظامه لتلك الكلمة غير المسؤولة التي يتفوه بها المشركون: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١]. فمحور سورة مريم إذن يدور على التوحيد ونفي الولد والشريك له سبحانه وتعالى، وتصب المقاطع كلها لإبراز هذا المحور من خلال الجولات في التاريخ السحيق ومظاهر الكون، وخلجات النفس البشرية وتطلعاتها إلى المستقبل القريب والبعيد.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ ـ سورة طه:

سورة طه من السور المكية وموضوعاتها لا تخرج عن موضوعات هذه المرحلة وهي أصول العقيدة وأمهات الأخلاق.

وتفتتح السورة بالحديث عن رسول الله ﷺ والقرآن المنزل عليه وأنه نزل عليه للتذكرة به وتبليغه للناس، وهي مهمته عليه الصلاة والسلام فهي الدعوة والتذكير أي البشارة والإنذار، وليس عليه حمل الناس بالإكراه على الدخول في دين الله، فأمر العباد إلى الله المطلع على ظواهر الأمور وبواطنها.

ثم يأتي المقطع الأول في الحديث عن موسى عليه السلام ورسالته وبيان رعاية الله تعالى له، فعلى غير توقع منه أكرمه الله بالرسالة وزوده بالآيات البينة وأرسله إلى فرعون، واستجاب لدعائه في شد أزره بأخيه، وأدخل الطمأنينة إلى قلبه بتذكيره نعم الله تعالى منذ الولادة والنشأة، كما طمأنه بقوله: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

تبرز عنايته في محاورته مع فرعون، وفي تحديه للسحرة وانتصاره عليهم وعلى غير توقع منه أيضاً ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠].

وفي هذا السياق إيحاء وتطمين لقلب رسول الله ﷺ أن عناية الله لا تفارق أصفياءه من الأنبياء والمرسلين، وتفتح على أيديهم الأبواب الموصدة، والقلوب المغلقة، فلا يشغلن باله بعناد القوم فإن مصيرهم إلى الله.

ويستمر هذا المقطع في سرد أحداث بني إسرائيل وما لاقاه موسى من سفاهاتهم في عبادة العجل، ولعل ما لالقاه موسى عليه السلام من أتباعه المؤمنين به كان أشد على نفسه مما لا قاه من فرعون وملئه.

وفي بداية المقطع الثاني يأتي الحديث عن القرآن الذكر، وبيان مصير المعرضين عنه يوم القيامة يوم نسف الجبال وتسوية الأرض، وكشف السرائر.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويتكرر ذكر القرآن وكونه وسيلة الدعوة والإقناع والتذكير وتنبيه الرسول على عدم التعجل في تلقيه وطلب الاستزادة من العلم.

ويأتي في المقطع الثالث الحديث عن آدم عليه السلام ورعاية ربه له وإسكانه الجنة وإسجاد الملائكة له وتحذيره من إبليس... ثم إهباطه إلى الأرض وإنزال الشرائع والهدايات لتكون سبباً لإعادة ذريته إلى الجنة يوم القيامة مرة أخرى، أما المعرض عن الذكر والهدى المنزل، فإنه يعيش معيشة ضنكاً في الحياة الدنيا ويحشر يوم القيامة أعمى...

وتأتي الخاتمة لتؤكد ما ذكرته الافتتاحية بمخاطبة رسول الله ﷺ وأمره بالصبر على تبليغ رسالة ربه، وزاده في ذلك ذكر الله وتسبيحه آناء الليل وأطراف النهار، والمداومة على الصلاة مع أهله ولا يشغلن ذهنه بالكسب والرزق.

وإذا طلبت قريش الآية أو البينة (المعجزة) فالبينة العظمى القرآن المنزل عليك وقد قطعت دابر حججهم في تمنيهم أن يأتيهم رسول يبلغهم رسالات الله قبل إنزال العقوبة، فها أنت الرسول يا محمد وهذه بينتك، فما عليك إلا التربص بهم وانتظار ما يؤول إليه أمرهم.

من خلال هذا العرض الموجز لافتتاحية السورة ومقاطعها الثلاثة وخاتمتها نجد أن محور سورة طه هو الرسول ومهمته ورعاية الله سبحانه وتعالى لشؤونه.

إن مقاطع السورة بمثابة جداول صغيرة تصب في مجرى النهر الأساس لتقوي تياره، أو مثلها مثل الفروع التي تحيط بجذع الدوحة لتقوي أصلها وتضفي الجمال والبهاء عليها ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد أفضنا في الحديث عن الخطوة الثانية وهي: التعرف على محور السورة، لأنها مع المناسبات العنصران المهمان في تفسير السورة تفسيراً موضوعياً.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

*** الخطوة الثالثة ـ تقسيم السورة إلى مقاطع:**

لمعرفة مقاطع السورة وتقسيماتها لابد من قراءة السورة قراءة متأنية بتدبر تام في الانتقالات في الموضوعات والفواصل في الآيات ثم تقطيعها حسب ترابط آياتها بموضوع متحد.

وفي الغالب تكون السورة مكونة من افتتاحية وخاتمة تتوسطهما مقاطع، تكثر أو تقل حسب القضايا المثارة في السورة، وكثيراً ما تشكل القصص أهم المقاطع وأغلبها كما هو الحال في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الكهف. . . وربما كانت مجالات الاستدلال على توحيد الله سبحانه وتعالى في الكون والأنفس والنبات والحيوان تكون أهم المقاطع، كما هو الشأن في سورة النحل، وربما كانت القضايا التشريعية والآداب الاجتماعية تشكل مقاطع السورة، كما هو الأمر في سورة النساء وسورة النور، وربما كانت أحداث غزوة أو أكثر ومقدماتها والتعقيب عليها تشكل أبرز مقاطع السورة كما هو الحال في سورة آل عمران وسورة الأنفال وسورة التوبة وسورة الأحزاب.

وبعد تقسيم السورة إلى مقاطع ينبغي أن يوضع لكل مقطع عنوان صغير يبرز أهم جانب في المقطع أو الموضوع الأساس فيه، وليكن اختيار العنوان الجانبي قريب الربط بمحور السورة إن أمكن.

وقبل البدء بالتفسير الإجمالي للمقطع يُستحسَن أن يربط بين المقطع وسابقه بحيث يشكل جسراً انتقالياً لتسلسل المعاني بين المقطعين.

ويبدأ بتفسير المقطع تفسيراً إجمالياً حسب طبيعة المقطع ونوع الموضوع الذي عرض فيه، ويكون التركيز على إبراز الموضوع بأسلوب بياني مشرق، وإذا كانت طبيعة الموضوع تقتضي إيراد الأقوال ومناقشتها، وإيراد الأدلة عليها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وترجيح قول على قول من أقوال المفسرين، فهذا المجال هو الموضع الأنسب لإيراد مثل ذلك. ولكن على الباحث أن يتجنب إيراد القضايا التي تقطع سلاسة التعبير عن الموضوع، وإبراز معالمه. فمثلاً ذكر

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

القراءات ووجوه الإعراب، والنكات البلاغية... لا تذكر في سياق التفسير الإجمالي للمقطع، وإن وجد فيها فائدة لا تفوت فليكن موقعها الهامش. وإن كانت الأحكام والآداب والهدايات القرآنية في المقطع من الوفرة بحيث لا يحتمل أسلوب التفسير الإجمالي تغطيتها، فليخصص المقطع بتعقيب أو فقرة ملحقة يذكر فيها كل الأحكام والفوائد والآداب والهدايات.

فإذا انتهى العرض الإجمالي للمقطع، يربط المقطع بمحور السورة، ليكون رافداً جديداً للمحور بحيث يبرزه ويقوي أثره لدى القارئ، كالسواقي التي تصب في مجرى النهر فتثريه والشطآن التي تحيط بأصل الدوحة فتقوى جذعها وسوقها.

هذه أبرز الخطوات والمعالم لتناول سورة ما على منهج التفسير الموضوعي.

أما تناول موضوع من خلال القرآن الكريم على منهج التفسير الموضوعي فله خطواته الخاصة ولعلنا نتناولها لاحقاً بإذن الله نحدد فيه معالمها ومنهجها.

أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن تكون هذه الدراسة مساهمة ولو صغيرة في إبراز منهج التفسير الموضوعي لدى الباحثين المعاصرين.

والله من وراء القصد، والله ولي المتقين.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

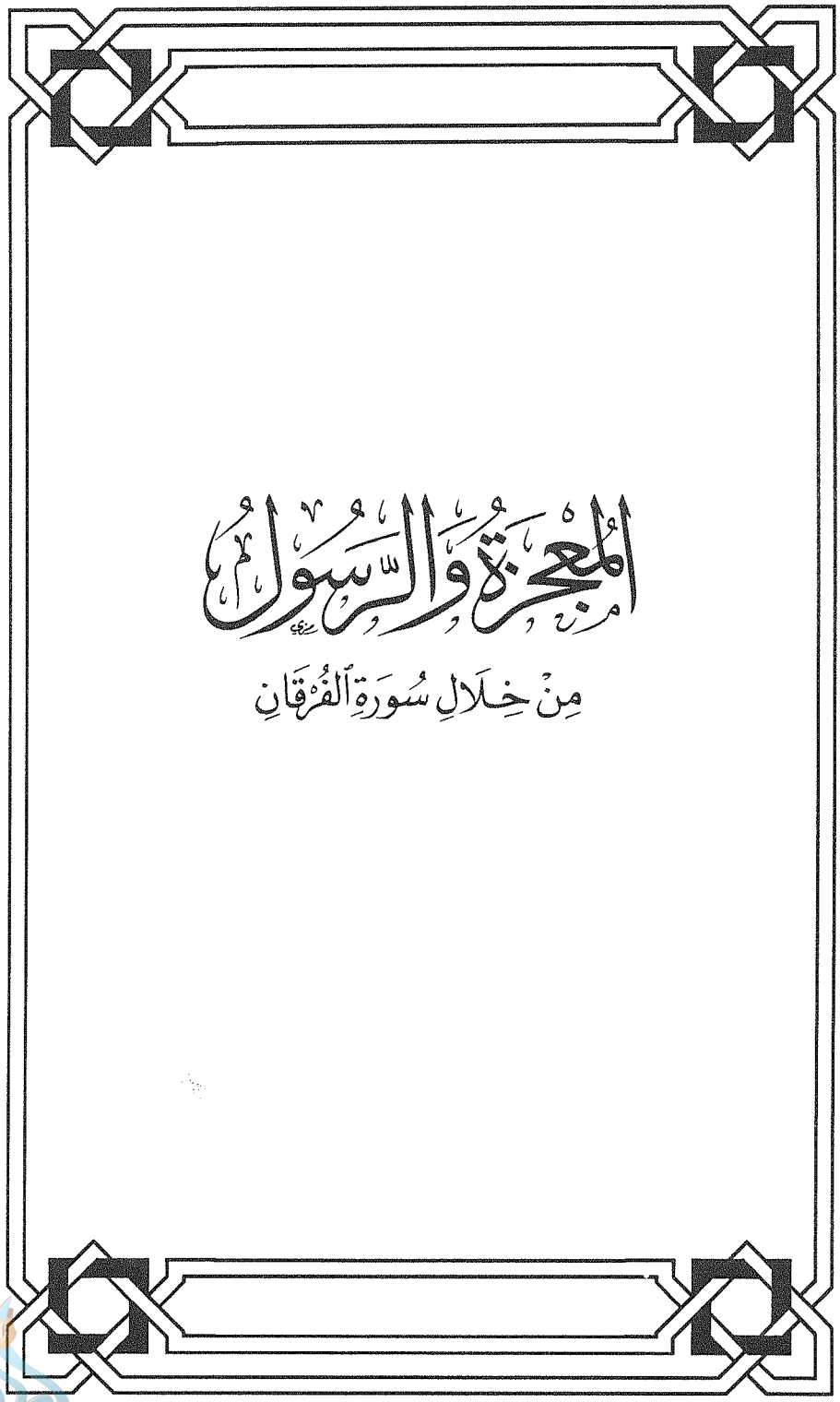

المعجزة والرسول

من خلال سورة الفرقان

جديد وحصري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بين يدي سورة الفرقان

اسمها:

تسمى سورة (الفرقان) حيث وردت التسمية في الحديث الصحيح، أخرج مالك، والشافعي، والبخاري، ومسلم، وابن حبان، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، أقرئنا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت، ثم قال: أقرئنا عمر فقرأت التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه[1].

عدد آياتها:

عدد آيات سورة الفرقان سبع وسبعون آية في قول جميع القراء[2]، وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يس وقبل سورة

---

(١) انظر الجامع الصحيح للإمام البخاري، كتاب الخصومات، باب كلام بعضهم في بعض: ٣/ ٩٠؛ ومسند الإمام أحمد: ١/ ٤٠.

(٢) انظر منار الهدى للأشموني، ص١٩٨؛ وحاشية الشهاب على البيضاوي: ٦/ ٤٠٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فاطر[1] وهي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف.

المرحلة الزمنية لنزولها:

سورة الفرقان مكية في قول الجمهور.

وعن ابن عباس وقتادة: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

والصحيح عنه ـ عن ابن عباس ـ أن هذه الآيات الثلاث مكية كما في صحيح البخاري في تفسير سورة الفرقان: عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ فقرأت عليه ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها عليَّ، فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء[2]. يريد قوله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وعن الضحاك: أنها مدنية إلا الآيات الثلاث من أولها إلى قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣][3] وهو قول شاذ لم ينقل عن غيره.

وأسلوب السورة وأغراضها شاهدة بأنها مكية كلها. وأنها تمثل المرحلة الثالثة من مراحل السور المكية:

فإن المشركين في مكة وقفوا من دعوة الحق مواقف متباينة فيه تدرج، وهو شأن البشر تجاه الدعوات الجديدة التي تهدف إلى تقويض الدعائم التي تقوم

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ٧٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية ـ بيروت.

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٦/ ١٥.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٨/ ٣١٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عليها المجتمعات، وتسعى إلى ترسيخ دعائم جديدة ومبادئ جديدة لإقامة الصرح الاجتماعي عليه. فمن العادة أن يتلقى الزعماء والقادة ومن بيدهم السلطة الدعوة الجديدة حسب المراحل والخطوات الآتية:

أ ـ عدم المبالاة بها وبالقائم بالدعوة لأنه ينادي في قوم قلَّ من يسمع له، فهي صرخة في واد أو نفخة في رماد. ويتربصون به ريب المنون ينتهي مع دعوته ويمضي كما مضى غيره من الشعراء وأهل الآراء الغريبة ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠ ـ ٣١].

ب ـ محاولة التعرف على ما يريده صاحب الدعوة ومحاولة ثنيه عن دعوته بالترغيب والترهيب، وذلك بعد أن يزداد عدد أتباع الداعية، وربما دخل في الدعوة بعض المقربين من الزعماء وبعض حاشيتهم وأقربائهم الأدنين، فيشعرون بخطورتها على مصالحهم وأهوائهم.

فمن مساومة على العقيدة ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

حيث قالوا: اترك سب آلهتنا وتسفيه أحلامنا، ونتركك وشأنك وربما عرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سَنة ويعبدون إلـهه سَنة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢].

وربما عرضوا عليه المال والجاه والنساء «. . . إن كنت تريد زعامة سوَّدناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد نساء زوجناك عشراً من فتياتنا. . .»[1].

جـ ـ فإن لم تنفع المساومة حاولوا إلقاء الشبه على دعوته (الأفكار) وإلقاء الشبه على سيرته (السلوك)، أو المطالبة بالبينات والخوارق المادية والتعجيزية.

د ـ فإن لم تنفع المحاولات السابقة كلها لجؤوا إلى الإيذاء والمقاطعة الاقتصادية والحبس والنفي أو محاولة التصفية الجسدية.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وسورة الفرقان تمثل المرحلة الثالثة إثارة الشبهات حول الدعوة وإثارة الشبهات حول الداعية.

فألقوا تهمهم وافتراءاتهم جزافاً على القرآن العظيم:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٥].

كما حاولوا التشكيك في شأن الرسول ﷺ ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۡ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨].

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المناسبات في سورة الفرقان

سبقت الإشارة إلى ما للمناسبات من أهمية في الترابط بين السور، وفي إحكام السورة والتلاحم بين مقاطعها، وفي إبراز الموضوعات والأهداف في السورة وبيان محورها الأساس. لذا سنقف وقفات متأنية مع المناسبات في سورة الفرقان.

أولاً ـ المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمة سورة النور:

اختتمت سورة النور بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٦٢ ـ ٦٤].

وافتتحت سورة الفرقان بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ١ ـ ٣].

١ ـ ثناء وتحذير:

ـ في خاتمة سورة النور الثناء على المؤمنين بالله ورسوله ﷺ لالتزامهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بآداب الإسلام ومنها توقير رسول الله ﷺ.

فإذا ضمهم مجلس فيه رسول الله ﷺ يشاورهم في مهمات المسلمين أو يبحث قضية من القضايا العامة لا ينصرف أحدهم حتى يستأذن رسول الله ﷺ، لئلا يفتقده عند الحاجة، وهذا الأدب الإسلامي الرفيع مطلوب من المؤمنين في جميع عصورهم مع قياداتهم الراشدة.

وفي الوقت نفسه حذَّرت الآيات الكريمة المتسللين خفية عن الأنظار، الذين يؤثرون مصالحهم على القضايا العامة، أو يفارقون الجماعة هروباً من المسؤولية وخشية التكاليف وإسناد المهام إليهم، حذَّرتهم من التعرض للفتنة في الدنيا أو العذاب الأليم في الآخرة، فليس لهم من الله من واق يدفع عنهم الفتنة أو العذاب.

ـ وفي افتتاحية سورة الفرقان: لله المثل الأعلى في الثناء، ومهمة الرسول العظمى الإنذار جاء الثناء على الله جلَّ جلاله بلفظ (تبارك) ومادة البركة تدل على النماء والزيادة، فالمستحق للثناء المطلق هو الله تعالى، والثناء والبركة تدل على صفة الفعل هنا لأن هذه البركة وصلت إلى عباده بإنزال الفرقان على عبده فآمن به من آمن والتزم المؤمنون بهدايته، ومن هذه الهدايات الآداب التي التزم بها المؤمنون في علاقاتهم مع رسول الله ﷺ فاستحقوا الثناء من الله تعالى على هذا الالتزام.

أما من لم يرفع رأساً بهدايات التنزيل من الحكيم الحميد فلينذره رسول الله ﷺ من سوء العاقبة (من الفتنة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة).

٢ ـ توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه:

جاء ذلك في خاتمة سورة النور في مظهرين:

أ ـ عدم انصراف المؤمن بحضرة رسول الله ﷺ إلا بإذنه، وذلك لبيان الجانب القيادي في شخصه، ولضبط الأمور وتنظيمها في حياة المؤمنين.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

باسمه المجرد ولا بكنيته؛ وإنما ينادى بلقب الرسالة ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. عن ابن عباس قال: «كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ، فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله»(١).

وجاء توقير رسول الله ﷺ في افتتاحية سورة الفرقان في مظهرين أيضاً:

أ- وصف رسول الله ﷺ بصفة العبودية المضافة إلى الله تعالى، وهذه الصفة يوصف بها رسول الله ﷺ في أشرف المقامات وأقربها، وفي مقام النصرة وإبراز الحجة، والقيام بالمهمة، ففي أشرف الأحوال والمقامات في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا . . .﴾ [الإسراء: ١].

وفي أقرب المقامات في ليلة المعراج ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠].

وفي مقام النصرة وإبراز الحجة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقام الدعوة إلى الله تعالى وهي المهمة العظمى التي كُلِّف بها ففيها تنويه به وثناء عليه ﷺ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

ب- عالمية رسالة رسول الله ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وهذه ميزة لم يعطها أحد من الأنبياء والمرسلين غيره كما صحَّ في الحديث «أُعْطِيتُ خَمْسَاً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي. . . وكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً. . .»(٢).

---

(١) الدر المنثور: ٦/ ٢٣٠، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه وأبي نعيم.

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب التيمم: ١/ ٨٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣ ـ مهمة رسول الله ﷺ العظمى (الإنذار):

جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. والتحذير عن مخالفة أمر رسول الله ﷺ لون من الإنذار، وينبغي أن تجتنب المخالفة بكل صورها، فقد أمر رسول الله ﷺ بالتوحيد فليحذر من الشرك، وأمر بالإيمان بالبعث بعد الموت فليحذر عن إنكار البعث، وأمر الإيمان بالقرآن وما ورد فيه من الهدايات فليحذر عن تعطيل أحكامه. وأمر بالآداب الإسلامية العامة ومنها طاعة رسول الله ﷺ وعدم الانصراف إلا بإذنه فليحذر عن مخالفة ذلك، وجاء الثناء باللفظ الصريح على من يلتزم أوامر رسول الله ﷺ ويتأدبون بالآداب الإسلامية، فالشهادة لهم بالإيمان، وأمر رسول الله ﷺ بالشفقة عليهم ورعاية حالهم ومصالحهم بالإذن والاستغفار لهم، وفي ضمن ذلك ذكر الشق الثاني لمهمة رسول الله ﷺ وهي البشارة.

ـ وجاء ذكر مهمة رسول الله ﷺ صريحاً في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وحذف المتعلق ـ الجار والمجرور ـ لتعم النذارة كل المخالفات عن أمر الله وأمر رسوله ﷺ في العقائد، والسلوك، والمعاملات، والأخلاق.

وفي ضمن ذلك البشارة بالمفهوم المخالف، فإذا كان نذيراً للعالمين عن المخالفة فهو بشير للطائعين المؤمنين.

ففي افتتاحية سورة الفرقان نوع من الارتقاء والتعميم:

في الثناء، وفي الذين ورد الثناء عليهم، وفي المهمة.

٤ ـ مظاهر من قدرة الله جلَّ شأنه وعظمته ووحدانيته وتنزيهه:

في خاتمة سورة النور نلحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ لله ملك السماوات والأرض وما بينهما خلقاً وتقديراً وتدبيراً وإنهاء وتدميراً، وفي تقديم لفظ الجلالة بيان تفرده بذلك.

ـ علمه المحيط بأحوالهم وصفاتهم وإحصاؤه عليهم، للمحاسبة والمجازاة.

ـ علمه المحيط بكلِّ شيء وهو تعميم بعد تخصيص لأن السياق سياق بيان القدرة والعظمة.

وجاءت بعض المظاهر الدالة على القدرة والعظمة والتوحيد في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ـ لله ملك السماوات والأرض، خلقاً وتقديراً وتدبيراً، وفي تقديم الجار والمجرور (لـه) المتعلق بالخبر المتقدم على المبتدأ فيه الدلالة على الحصر والقصر.

ـ تنزيهه عن الولد والشريك فهو الغني عن ذلك، المنزه عن العجز والحاجة، فمن مظاهر كمال قدرته وعظمته غناه عن المخلوقات.

ـ خلق المخلوقات بتقدير، ولا يكون التقدير إلا بناء على العلم المحيط بدقائق الأمور وجلائلها، ويستلزم الحكمة لوضع الشيء المقدر في مكانه المقدر بناء على العلم المحيط.

٥ ـ اليوم الآخر والبعث بعد الموت:

ـ وأنَّ ذلك من خصوصيات الإله الحق.

ـ جاء ذلك في خاتمة سورة النور قوله تعالى: ﴿... وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [النور: ٦٤].

ـ وجاء ذلك عند الحديث في افتتاحية سورة الفرقان عن العجز المطلق لآلهتهم المزعومة ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

فالله جلَّ جلاله المتفرد بالإماتة والإحياء والنشور والحساب والجزاء.

ثانياً ـ المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمتها:

١ ـ الحديث عن الوحي: جاء في افتتاحية سورة الفرقان الحديث عن الوحي المنزل على محمد ﷺ والمنة بإنزاله عليه وعلى الإنسانية (العالمين)، وذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ. . .﴾ [الفرقان: ١].

ـ وجاء في خاتمتها الحديث عن الوحي الذي عبَّر بآيات الله ومن شأن عباد الرحمن إذا ذكروا بالوحي المنزل أن يتفاعلوا به ويسمعوا ويطيعوا ويعملوا بهدايات ما أنزل ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

٢ ـ الحديث عن الموحى إليه (الرسول):

وجاء الحديث عن الرسول ﷺ في افتتاحية السورة ﴿. . . نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ. . .﴾ [الفرقان: ١].

وقد تقدَّم ما في هذه الإضافة من تكريم وتشريف وزلفى من ربه.

ـ وجاء الحديث عن الرسول (الموحى إليه) وصلته بربه في خاتمة السورة في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

فالإضافة متبادلة (عبده) و (ربي) ففي كلا الموضعين دلالة على الاختصاص والقرب المستوجب للتأكيد والنصر، وفي ذلك تسلية وتشريف وترويح عن رسول الله ﷺ.

٣ ـ الحديث عن أصول العقيدة: (الألوهية، واليوم الآخر، والرسالة).

في الافتتاحية جاء الحديث عن المعبود بحق الواحد الأحد في قوله تعالى:

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

وجاء الحديث عن المعبود بغير حق الآلهة المزيفة العاجزة ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

فكونها مخلوقة غير قادرة على خلق شيء، ولا تستطيع أن تدفع الضر عن نفسها ولا تستطيع جلب النفع لها فكيف تملك ذلك لأتباعها؟! وكما أنها لا تحيي ولا تميت ولا تملك البعث بعد الموت، فمن كان هذا شأنه كان عاجزاً لا يليق بالإله الذي يقول للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ . . .

وجاء الحديث عن المعبود بحق في خاتمة السورة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . . . ﴾ [الفرقان: ٦٨].

والحديث عن الإله الآخر الذي يلقى عابده الآثام. والحديث عن اليوم الآخر في الافتتاحية في قوله تعالى: ﴿ . . . وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

والحديث عن اليوم الآخر في الخاتمة ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ [الفرقان: ٦٩].

والحديث عن الرسالة في الافتتاحية في قوله تعالى: ﴿ . . . لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]. بذكر أبرز مهام الرسول . . .

وجاء الحديث عن الرسالة في الخاتمة في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ . . . ﴾ [الفرقان: ٧٥]. بذكر المهمة الأخرى البارزة للرسول وهي البشارة، وكذلك النذارة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧].

٤ ـ إثبات الظلم والقول بالباطل (اللغو) والزور للذين كفروا في افتتاحية السورة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٥].

وذكرت الخاتمة ترفع عباد الرحمن المتبعين لهدايات القرآن المنزل عن اللغو وقول الزور، وذلك في قوله تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، كما تقدم في صفتهم ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثالثاً ـ المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تقدم أن السورة تسمى سورة الفرقان وليس لها اسم غيره وقد ثبت الاسم في الحديث الصحيح كما مر[1].

والمناسبة بين اسم السورة (الفرقان) ومحورها واضح جلي، فإن محور السورة يدور على إثبات صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزته العظمى (القرآن الكريم).

ففيها دلائل نبوَّته من حيث:

ـ نظمه الخاص المنزل منجماً ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

ـ ومن خلال اشتماله على أسرار السماوات والأرض التي سيكشف العلم والتطور الحضاري جوانب كثيرة منها:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

ـ ومن خلال اشتماله على أنباء الغيب الذي لم يكن محمد ﷺ على علم ودراية بها:

---

(١) انظر ما تقدم، ص٥٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾[الفرقان ٣٥]

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً . . . ﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨].

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ . . . ﴾ [الفرقان: ٤٠].

إن الحديث عن القرآن الكريم وبيان مزاياه والرد على الشبهات التي أثارها المشركون حوله والقضايا الغيبية والعلوم الكونية التي اشتمل عليها؛ يستغرق معظم السورة، ويأتي في المرحلة الثانية الحديث عن الرسول ﷺ والدفاع عنه وبيان سنَّة الله في الرسالات.

فجملة الحديث في السورة يدور حول الرسول ومعجزته الدليل الأكبر على صدق ما جاء به من الهدى.

ولا شك أن قضية الألوهية وتوحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الشريك والولد هو من مضامين الرسالة والمعجزة وما يدعو إليه النبي الموحى إليه القرآن.

ولعلنا ندرك بعد تحديد العلاقة بين اسم السورة والمحور السر في تقديم ذكر القرآن على العبد في هذه السورة، كما جاء في الافتتاحية ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

بينما نجد في سور أخرى تقديم ذكر العبد على القرآن، كما في سورة الكهف ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف: ١].

وفي سورة النجم ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠].

وفي سورة الحديد ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الحديد: ٩].

فحيثما كان الاهتمام منصباً على شخص الرسول ﷺ والدفاع عنه وبيان صدقه فيما جاء به كان تقديم كلمة العبد على الكتاب أو الوحي كما جاء في آية

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

التحدي في سورة البقرة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ. . .﴾ [البقرة: ٢٣].

وحيثما كان الاهتمام منصباً على إبراز المعجزة كان تقديم ذكر الكتاب على العبد.

فمحور السورة معجزة رسول الله ﷺ العظمى **القرآن الكريم**، الفرقان الذي يفرق به بين الصادق والكاذب، وبين الحق والباطل، وبين الحقائق والأساطير، وبين الصراط المستقيم والسبل المائلة المزورة بين العدل والظلم.

رابعاً ـ المناسبات بين مقاطع السورة وبين المقاطع ومحور السورة:

سيأتي الحديث عنها عند الكلام على كلِّ مقطع.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

محور سورة الفرقان

تقدم في ثنايا الحديث عن المناسبات أن محور سورة الفرقان هو الحديث عن القرآن الكريم باعتباره معجزة رسول الله ﷺ ودليل صدقه.

ولو نظرنا إلى المحور من الزوايا المنهجية التي حددناها للتعرف على محور السورة لوجدناها كلها تشير إلى (القرآن المعجزة).

ـ فلو نظرنا إلى المحور من زاوية اسم السورة فاسمها (الفرقان).

ـ ولو نظرنا إلى الافتتاحية والخاتمة للسورة لوجدناهما تتحدثان عن القرآن المنزل المشتمل على الهدايات.

ـ ولو نظرنا إلى الفترة الزمنية لسورة الفرقان لوجدناها من السور المكية للمرحلة الثالثة فيها ـ كما تقدَّم ـ ومن موضوعات المرحلة المكية الأساسية الرسالة والنبوة وما يتعلق بها وما يدل على صدق الرسول ﷺ ويكون دليل نبوته.

فسورة الفرقان تناولت دلائل النبوة من خلال معجزة القرآن.

ـ ولو نظرنا إلى المقاطع وجُلّ الموضوعات التي اشتملت عليها السورة لوجدناها تدور حول القرآن ورد الشبهات عليه، وحول الرسول والدفاع عنه، وعن رسالته المتمثلة في القرآن العظيم.

فمحور السورة الأساس إذن هو تصديق الرسول ﷺ من خلال معجزة القرآن.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

افتتاحية سورة الفرقان

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ (١) عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا (٣) وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ١ ـ ٣].

بدأت السورة بالثناء على الله تعالى الذي تنامى خيره وتكاثر، فشمل كل شيء ومن أعظم مظاهر الخير المتنامي إنزال الفرقان على صفيه وخليله خاتم الأنبياء

---

(١) المراد بالفرقان هو القرآن إجمالاً، وصف بذلك لأن الله سبحانه وتعالى فرق به بين الحق والباطل في نبوة محمد ﷺ وبين الحلال والحرام، أو لأنه فرق في النزول كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ويرجح الرازي التأويل الثاني للتعبير عنه بصيغة (نزل) وهي تدل على التفريق. ولعل الإشارة في سورة آل عمران إلى ذلك، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣].

(٢) ذهب ابن عاشور إلى جعل الافتتاحية من آيتين فقط، وقال: إنها براعة استهلال وبمثابة خطبة الكتاب أو الرسالة. انظر التحرير والتنوير: ١٨/ ٣١٩. وهو صنيع الرازي في تفسيره، انظر: ٢٤/ ٤٤، فكأنهم نظروا إلى الإخبار عن تنزيه الله وإرسال رسوله ثم انتقل الحديث عن أفعال المشركين في اتخاذ الآلهة وأقوالهم في القرآن والرسول. فالجامع عندهم الانتقال من تقرير الحقائق إلى الإخبار عن الواقع الباطل للمشركين. أما وجهة نظرنا في ضم الآية الثالثة إلى الافتتاحية فمن حيث توضيح صفات الإله الحق الذي ذكرت له أوصاف أربعة تثبت له التوحيد والتقديس، وبيان الآلهة المزيفة وأوصافها الأربعة التي تثبت لها العجز والقصور. فاتحاد موضوع الآية الثانية والثالثة هو تقرير توحيد الله، وبطلان ألوهية ما سواه.

(٣) قدم ذكر الضر لأن دفعه أهم، والقاعدة الشرعية دفع الضرر مقدّم على جلب المنفعة، وكذلك تقديم الموت في الذكر لمناسبة الضر. انظر الألوسي: ٩/ ٢٤٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ليبلغ عن ربه وينذر به[1] العالمين. يبين الميزان الذي يفرق به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ، ويميز بين منهج السعادة والنجاة ومنهج الشقاء والهلاك..

ومن أوائل الذين يقصدون بالتبليغ والإنذار أولئك الذين اتخذوا معبودات صنعوها بأيديهم ثم أضفوا عليها بأوهامهم صفة القدسية، وهم يدركون عجزها المطلق عن دفع الضر عن أنفسها أو إيصال النفع لها، ناهيك عن دفع الضر عن عابديها أو إيصال الخير إليهم، ففاقد الشيء لا يعطيه، ولو أنهم فكَّروا في أنفسهم وما وهبهم الله من قدرات وطاقات واستعدادات لأدركوا من أنفسهم أنهم أفضل من تلك الأصنام والأوثان، لأنهم يستطيعون الحركة والسعي والكسب، والفهم والمخاطبة أما تلك فهي عاجزة عن السمع والبصر والفقه والتصرف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤ ـ ١٩٥].

إن من شأن المعبود الحق ملك السماوات والأرض خلقاً وإيجاداً من العدم وأن يكون غنياً عن مساعدة غيره في تدبير هذا الملك، وأن لا ينازعه أحد ملكه، وأن تكون هذه المخلوقات قد وضعت في مواضعها المعينة لتؤدي دورها في هذا الكون على الوجه الذي قدر لها.

وأن يكون له مطلق الإرادة والمشيئة في مخلوقاته فإذا أراد إنهاء وجودها أنهاها، وإذا أراد بعثها للمحاسبة والجزاء بعثها، فهل تقدر آلهتهم المزيفة على شيء من ذلك؟!.

تضمنت افتتاحية سورة الفرقان الحديث المجمل عن قضايا العقيدة الأساسية:

---

(١) اسم يكون ضمير يحتمل إعادته إلى العبد وإلى الفرقان وإلى لفظ الجلالة. ورجح الشوكاني إعادته إلى العبد لسببين:
الأول: لأنه أقرب مذكور، والثاني: لأن الإنذار من العبد حقيقة ومن غيره مجاز، وحمل الكلام على الحقيقة أولى. فتح القدير: ٤/ ٦٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الألوهية، فبعد ذكر تقديس الله عزَّ وجلّ جاءت أربعة أوصاف تؤكد التنزيه والتقديس للمعبود بحق.

- ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٢].
- ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الفرقان: ٢].
- ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الفرقان: ٢].
- ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

وتحدثت عن البعث بعد الموت وعن النشور للحساب والجزاء ولكن في لمحة خاطفة، وقد جاءت الإشارات إلى ذلك من خلال مقاطع السورة لأن هذا المجال لا يشكل محوراً رئيساً من محاور السورة.

أما الحديث عن الرسالة والرسول والمعجزة فقد تكرر بأساليب متنوعة عرضاً وبياناً، وردّ شبهات لأن المحور الأساس للسورة كما تقدم هو تصديق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن العظيم.

وهذا شأن افتتاحيات السور، أن تشتمل على القضايا الرئيسة في السورة ثم تفصل في المقاطع ويعاد ذكرها وتأكيدها في الخاتمة.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع الأول

شبهاتهم حول القرآن والرد عليها

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٦].

المناسبة بين المقطع والافتتاحية:

بعد الثناء على الله بما هو أهله من التقديس والتمجيد وإنزال الخيرات المتنامية على عباده التي كان من جملتها إنزال الفرقان على عبده ورسوله محمد ﷺ ليبلغ الثقلين رسالات ربهم وينذرهم سوء المصير في الدنيا إن لم يسمعوا لهذا القرآن، وسوء العاقبة في الآخرة، إن استمروا على شركهم وكفرهم وتعطيلهم وسائل المعرفة التي وهبهم الله إياها. بعد ذلك جاء ذكر موقف المشركين من القرآن العظيم، فبدل الاستماع إليه وتدبر معانيه واتباع هداياته، وشدة الاهتمام بشؤونه، لأنه منزل ممن له ملك السماوات والأرض ـ ويتناسب الاهتمام بالكلام مع الاهتمام بالمتكلم الذي يخاطب ـ اتخذ القوم موقفاً مخالفاً تماماً. لم يكن تصرف القوم تصرفاً يليق بالعقلاء، فإن العاقل إذا خوطب ألقى لما يسمع بالاً وقلب الأمر على وجوهه، وتدبر في مضمون الكلام الموجه إليه، ليكون جوابه مطابقاً لمقتضى الحال ملائماً لمكانة العقلاء متوافقاً مع مضامين الخطاب.

المعنى الإجمالي للمقطع:

لقد دفع القوم كفرهم النابع من ظلمة قلوبهم وتغطية عقولهم إلى أن ينسبوا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

القرآن إلى غير منزله، وأن يظلموا الرسول الذي أنزل عليه القرآن ويفتروا عليه الكذب والبهتان، فجمعوا بين الجور والميل عن الحق.

كان هذا الاتهام يتكرر من القوم لأنهم لا يجدون ما يغطون به عجزهم تجاه تحدي القرآن الكريم لهم، فهم يريدون إقناع أنفسهم وحمل غيرهم على القول معهم أن مصدر القرآن بشري، ولكن موضع الضعف في شبهتهم هذه أمران:

الأول: أن محمداً ﷺ الذي جاء بالقرآن لا يدعيه أنه منه وإنما ينسبه إلى ربه جل وعلا. وهم لم يجربوا عليه كذباً قط.

الثاني: أن محمداً ﷺ واحد منهم ومداركه العلمية التي تلقاها من بيئته لا تزيد على ما كان عند جملة القوم، بل لعل بعض القوم كانت لديه من المزايا كقول الشعر والاطلاع على أخبار الماضين، ومعرفة أنساب العرب وأيامهم، وكان لبعضهم أسفار إلى دول وشعوب وأقوام آخرين مما أكسبهم ثقافة واطلاعاً على أحوال الأمم مثل النضر بن الحارث الذي كان يقول: إن لديه من قصص رستم واسفنديار وأساطير[1] الفرس ما يضاهي به قصص القرآن وأساطيره، مما لم يكن متوفراً عند محمد ﷺ، بل قد عرف محمد ﷺ بأميته عندهم[2].

---

(١) أساطير: جمع أسطورة: وهي الأباطيل والأحاديث لا نظام لها. انظر لسان العرب: ٤/ ٣٦٣.

(٢) قال بعض العلماء: الأمية صفة نقص في جميع البشر إلا في محمد ﷺ فإنها صفة كمال: لأنها تبرز جانب المعجزة العظمى للقرآن الكريم. وكانت أمية رسول الله ﷺ مشهورة عندهم ومسلماً بها، لذا لم يدعوا إنه كتبها وإنما قالوا في فريتهم: (اكتتبها)، ومعنى اكتتبها طلب من غيره أن يكتبها له. ولم يقولوا يقرؤها وإنما قالوا: (فهي تملى عليه): أي تقرأ عليه. وكفار قريش كانوا أحرص الناس على إبطال دعوته باتهامه بأي شيء يجدون فيه قبولاً عند عامتهم. ولم يستطيعوا اتهامه بالقراءة والكتابة ودراسة علوم الأولين والاطلاع على الأديان من بطون كتب أصحابها، لأن هذه الفرية لن تجد آذاناً صاغية بين أتباعهم وعامة الناس في مكة. ولكن المستشرقين المعاصرين وأذنابهم لا يرعوون عن الافتراء المفضوح لكل مطلع على السيرة النبوية، لم يرعووا أن يقولوا: إن محمداً كان قارئاً كاتباً مطلعاً على علوم اليهود والنصارى؟!.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد حاول القوم تغطية هذه الفجوة في ادعائهم بأن قالوا: إنه افتراه، اختلقه من عند نفسه، بالتعاون مع مجموعة من أتباعه حيث زودوه بالمعلومات ومادة القصص، وصاغها محمد ﷺ بأسلوبه البياني البليغ.

لقد كشف القرآن الكريم فريتهم هذه في أكثر من موضع، وفي أكثر من مناسبة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

إن الكلام المفترى لا يكلف صاحبه شيئاً سوى السرد بعد تذويقه وإضفاء المسحة الجمالية عليه، فلو كان القرآن مختلقاً مفترى من عند أحد من البشر لكان القوم أقدر الناس على الإتيان بمثله، لأن جبلتهم وطبائعهم تلائم الاختلاق والكذب، بخلاف نفس محمد ﷺ المطبوعة على الصدق والأمانة والاستقامة. فهلا جاء القوم بالكلام المفترى، وأكثروا منه، ولتكن عشر سور من الذي يفترونه على شرط أن يكون في المستوى البياني للقرآن.

أما الذين نسبوا إليهم مساعدة محمد ﷺ والتعاون معه في الخفاء فهم: يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى، وجبر مولى ابن عامر.

ولكن ما الحكمة في اختيارهم جميعاً من الموالي الغرباء عن قريش؟!.

لقد اختاروهم من المغمورين المجهولين لعل الفرية تجد قبولاً لدى العامة من الناس، ولدى الغرباء من قريش فيتوهموا أن هؤلاء الموالي على علم لا تعلمه قريش فاستعان بهم محمد ﷺ.

ولكن الذي غفلوا عنه أو تغافلوا، أن يوجهوا لأنفسهم سؤالاً وهو: لو كان الموالي يملكون علوم الأولين الآخرين وعلوم الكون وعلوم الأديان والأمم... أما كانوا أحق أن يدعوا لأنفسهم دون محمد ﷺ؟!.

ثم إن القرآن لم يكن كله قصصاً وأخباراً بل جاء برسم الحياة في كل شؤونها

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وآفاقها وميادينها بأسلوب معجز وأفانين من القول وتصاريف في مناحي البلاغة أعجزت فصحاء الضاد فكيف ينسجم مع زعمهم أن محمداً ﷺ يتلقاه من البشر ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٣ ـ ١٠٥].

إن ما ورد في آيات الذكر الحكيم من قضايا كونية وحقائق فلكية تتعلق بسنن الله فيها، وما يتعلق بالحياة على الأرض وسنن الله فيها، وما يتعلق بالأمم والشعوب التي اندثرت وبقي آثارها وذكرها، وما يتعلق بمستقبل ما يجري في الأيام القادمة. . . وغير ذلك دليل على أن القرآن منزل من الذي أحاط علماً بكل شيء بأسرار الكون والمخلوقات في السماوات والأرض، فلم يستطع أحد أن يبطل حقيقة ذكرها القرآن الكريم، ولن يستطيع أحد أن يكذب خبراً أورده القرآن الكريم عن الأمم السابقة أو ذكر نبأه عن مستقبل الأيام.

قام الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) بدراسة الكتب المقدسة الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة. . .) فوصل إلى نتيجة أنه لا يوجد في القرآن الكريم نص يمكن امتحانه علمياً إلا وهو سابق للعلم، وأنه لا يتناقض مع أي معطيات علمية قطعية، على عكس التوراة والإنجيل فيما وصلنا منهما، وتحدث عن قضايا كونية وعن قضايا في القصص القرآني وساق أمثلة كثيرة، وكانت النتيجة القطعية الواحدة لا تناقض بين القرآن وما أثبته العلم، ولم يستطع العلم أن يبطل حقيقة قرآنية واحدة[1]، وهذا مظهر من مظاهر قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

وإن الذين يكذبون هذه الحقائق يستحقون غضب الله وعقوبته.

---

(١) انظر كتابه (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة). من منشورات دار المعارف ـ القاهرة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إن الذين يكفرون بالقرآن المنزل من العليم الحكيم يعرضون أنفسهم لعذاب الله الأليم، ولولا سعة مغفرة الله ورحمته بعباده لأنزل بهم ذلك، ولكن الله رحم أمة الدعوة بتأجيل حسابهم إلى يوم القيامة لعل بعضهم يعود إلى الصواب والحق. فيستغفر الله ويتوب إليه عما كان عليه من الضلال. ووجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم رحمة لهم وأمان من العذاب ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. بالرغم من استحقاقهم العذاب.

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

إن آيات المقطع الأول في صلب المحور وصميمه حيث تحدّث المقطع عن شبهتهم حول القرآن، ودفع هذه الشبهة ببيان: أن القرآن منزل من عالِمِ غيب السماوات والأرض. فلا يحتاج الأمر إلى ربط ومناسبة.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع الثاني

شبهاتهم حول الرسول ﷺ والرد عليها

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١٠].

المناسبة بين المقطعين:

بعد أن أثاروا الشبهات حول الوحي المنزل فقالوا فيه ما قالوا جاءت اعتراضاتهم على الرسول الذي أنزل عليه الوحي.

المعنى الإجمالي للمقطع:

شبهة الإنسان عبر البشرية عن كلِّ رسولٍ: ﴿ . . . هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣].

﴿ . . . مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ۖ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

قاله قوم نوح عليه السلام، وقاله قوم شعيب عليه السلام حينما دعاهم إلى الالتزام بالحق والعدل في التعامل وترك الجور والظلم والإفساد في الأرض ﴿ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقاله قوم صالح عليه السلام: ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ۚ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٤].

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهي السنّة في جميع الأقوام ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥ ـ ٦].

كان هذا استغراب الناس خلال تاريخ الرسل والنبوات، وذلك جهل منهم بحكمة الله سبحانه وتعالى وسنّته في الرسالات، وجهل بقيمة الإنسان في ميزان الله العلي الحكيم.

أما جهلهم بحكمة الله فإن الإنسان خلق لأداء مهمة على وجه الأرض، وهي عبادة الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

ولمعرفة المهمة والتكاليف لابد من تبليغ وبيان. والطرق المتصورة في التبليغ ثلاث، لا رابع لها، فإما أن يبلّغ كلّ فرد مباشرة من ربه وهذا ينافي الحكمة من الابتلاء إذ الابتلاء يقتضي الاختيار في الإرادة.

والطريق الثاني في التبليغ أن يرسل إليهم رسولاً من غير جنسهم من الملائكة أو الجن، فإن كانوا على صورتهم الأصلية لا تتحقق معه الغاية من التبليغ، لأنهم لو أتوهم على صورتهم الأصلية لا يتحقق معه التلقي والبيان والتطبيق العملي والقدوة حيث لا انسجام بين التكوينين. يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩].

وإذا ظهروا لهم على صورة البشر كانت مطابقة للطريقة الثالثة وهي أن يكون الرسول من جنس البشر وهي الطريقة التي يتحقق معها المراد من إرسال الرسل.

إن الحكمة الإلهية لا تتحق إلا أن يكون رسول البشر من البشر «واحد من البشر يحس إحساسهم ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ويعلم ضروراتهم وأثقالهم، . . . ومن ثمّ يعطف على ضعيفهم ونقصهم ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خطوة، وهو يفهم ويقدر براعتهم وتأثراتهم واستجاباتهم، لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق. وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد، لأنه بشر منهم يتسامى بهم رويداً رويداً، ويعيش بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معرضة لهم ينقلونها سطراً سطراً، ويحققونها معنى معنى وهم يرونها بينهم، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها، لأنها ممثلة في إنسان، ولو كان ملكاً ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته ولا شوق إلى تحقيق صورته»[1] فالاعتراض على بشرية الرسول ﷺ جهل بهذه الحكمة الربانية.

ولقد جرت سنّة الله أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم لأن الحكمة والغاية لا تتحقق إلا بذلك، يقول جلّ شأنه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥].

كما أن الاعتراض على بشرية الرسول جهل بقيمة الإنسان في ميزان العلي الحكيم، إن الإنسان خلق من مادة الطين لأنه مهيأ للحياة على هذه الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. ولكن التكريم جاء من نفخة الروح التي استحق بها إسجاد الملائكة له ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة ص: ٧١ ـ ٧٢].

بهذه النفخة الإلـهية تميز وصار إنساناً، واستخلف في الأرض... وقد أودع الاستعداد للاتصال بالملأ الأعلى عن طريق تلك النفخة العلوية.

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٥٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إذن لا مجال للإنكار على بشرية الرسل إذا أدرك العاقل مكانة الإنسان في ميزان الله وإذا أدرك حكمة الله في النبوات والرسالات.

ولكن للبشر الحق أن يطلبوا من الرسل أن يأتوهم ببراهين على صدق اتصالهم بالملأ الأعلى إذ لا علامات فارقة لهم عن سائر البشر، ولم ينكر القرآن عليهم هذا الطلب.

فعندما طلب قوم صالح العلامة والبرهان من رسولهم بقولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. لم ينكر عليهم هذا الطلب، وإنما استجاب لهم فقال: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥ـ١٥٦].

ولكن القوم إذا حددوا المعجزة التي يريدونها ولم يتحولوا عنها إلى غيرها، أوخذوا على هذا الجمود في الطلب. فإن الوصول إلى الحقيقة هدف العاقل المنصف، فإذا ظهرت له الآية (البرهان، المعجزة، الخارقة) على يد رسول وأدرك أنها حق وليست في مقدور البشر، عليه أن يؤمن به ويخضع للبرهان الذي ظهر له.

ولو طلب القوم من رسولهم تحويل مجرى نهر من وجهة إلى أخرى، أو إزالة جبل من مكانه إلى مكان آخر، فقال لهم رسولهم: إنه يأتيهم بغير هذين الأمرين وهما ليسا من مقدور البشر، بأن يشير إلى شجرة فتأتمر بأمره وتنتقل من مكان إلى مكان آخر، ثم يأمرها فتعود إلى مكانها الأول أو يكلم حجراً فيسمع الناس كلامه.

لا فرق في عالم الخوارق ودلالاتها بين ما طلبوا وبين ما جاءهم به رسولهم لأنها كلها خارج مقدور البشر. فلا معنى لجمودهم على ما طلبوا، وعلى العاقل أن يستسلم ويقرّ أن هذه الخارقة كافية لإثبات صدق من جاء به.

لذا جرت سنّة الله تعالى على الأقوام أنهم إذا حددوا خارقة معينة ولم يتحولوا عنها ولم يقبلوا نصيحة الرسول بالتحول عنها إلى غيرها، واستجيب لهم في مطلبهم ذاك ثم ارتدوا على أعقابهم كان العذاب المستأصل مصيرهم، هذه السنّة بيّنها قول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]. وهذا ما حدث لقوم صالح عندما أصروا على إخراج الناقة من الصخرة الصماء.

كماأننا نلحظ من خلال اقتراحاتهم عن الرسول وامتيازاته، أن لهم قيماً محددة دفعتهم إلى ذلك. ففي تصوراتهم أن يكون الرسول في غنىً عن الطعام والشراب ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ـ٣٨]. وإن احتاج إلى الطعام والشراب فينبغي أن يكون مكفياً عن ذلك بأتباعه ونفره فلا يحتاج للمشي في الأسواق للتكسب والسعي على الرزق.

أو ينزل عليه ملك للنصرة والتأييد فينذر معانديه ويخوفهم من البطش بهم، أو يلقى إليه كنز من السماء[1] فينفقه على نفسه وأتباعه لتظهر لهم المزية على غيرهم، فإن لم يكن شيء مما تقدم فلا أقل من جنة (بستان من نخيل وأعناب وغيرها) يأكل منها، وكلها صور مادية منبثقة من قيمهم المادية التي يقيسون بها الرجال، وهذا شأن أهل الدنيا لا يحسبون حساباً للآخرة فمنتهى نظرهم أن يكون المرء في هذه الحياة وافر المال كثير الأتباع نافذ الكلمة. أما الكمالات النفسية والسمو الروحي والأخلاق والمُثل المعنوية فلا وجود لها في عالم الماديين. وهذا ما قال الملأ من بني إسرائيل عندما أخبرهم نبيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وقالت قريش: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

---

(١) من العادة أن تُحصَّل الكنوز من باطن الأرض فلا يطلق الكنز إلا على مدخرات الأمم القديمة التي دفنوها في باطن الأرض لإخراجه عند الحاجة، ولكن القوم اقترحوا إنزاله عليه من السماء إمعاناً في التعجيز. كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا لم تتحقق في الرسول مواصفاتهم، فليبحثوا عن سبب دفع الرسول إلى هذه المقولة، وعرض نفسه للصدام مع القوم وقد كان في غنىً عن ذلك.

ـ ومن المعلوم أن الرسول يرسل وهو متصف بالصدق والأمانة والعقل والحكمة وفي قمة حالات الرشد البشري. إلا أنّهم يوهمون الناس إن هذا الرجل قد فقد عقله أو غُلب عليه فهو يهرف بما لا يعرف ويقول ما لا يعقل، ويأتي مالا ينبغي، فيكسب بذلك عداوة الناس ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وهذا هو المنهج الذي يسير عليه الطغاة المعاندون للحق أن يتهموا الرسل في عقولهم ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣].

هذا ما قاله فرعون لموسى عليه السلام: ﴿... فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقالت ثمود لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

وقالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿... إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٧ ـ ٤٨].

ولكن يتوارد سؤال هنا: لماذا اختار القوم هاتين التهمتين: ساحر، ومجنون؟

في الحقيقة تنوعت اتهاماتهم وتعددت حول رسول الله ﷺ، فقد اختلفت التهمة حسب اختلاف مصدرها أو قائلها، وكذلك اختلفت حسب الظاهرة التي رأوها على رسول الله ﷺ.

أ ـ فمن نظر إلى حال رسول الله ﷺ عند نزول الوحي عليه ـ حيث يتفصد

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جبينه من العرق[1] ويكون له خرير كخرير البكرة، ويسمع عند فمه دوي كدوي النحل[2] ظن أنه يصاب بنوبات من الصرع أو الجنون، وقد رد القرآن على فريتهم هذه في مواطن عديدة منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٢][3].

ب ـ ومن نظر إلى النظم القرآني من حيث الفاصلة في الآيات القرآنية والأسجاع الرائعة ظنه مثل سجع الكهان الذين كانوا يأتون بالعبارات العامة الموهمة التي تشير إلى قضايا غيبية. فقال: إنه كاهن والقرآن ضرب من الكهانة.

فجاء الرد القرآني عليهم ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٢٩ ـ ٣٢].

---

(١) في الصحاح من حديث عائشة رضي الله عنها عن بدء الوحي ووصفه. انظر صحيح البخاري، باب بدء الوحي: ١/ ٣.

(٢) انظر الروايات والتعليق عليها في كتاب المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة، ص٦٠ وما بعدها؛ وكتاب مناهل العرفان للزرقاني: ١/ ٥٦ وما بعدها؛ وكتاب السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري: ١/ ١٢٨.

(٣) من المناقشات المفحمة لقريش ما جاء في سورة (المؤمنون) في رد فريتهم على رسول الله ﷺ واتهامه بالجنون: قال تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣ ـ ٧٠].
جاء في سياق الدفاع عن شخص رسول الله ﷺ ذكر كلمة (صاحب) وتكررت في أكثر من آية وتدل بظلالها على افتراء القوم وتوبيخهم، فإن الذي يتهمونه بمختلف التهم صاحبهم الذي طالت عشرتهم له وامتدت أربعين سنة ولم يتهموه بشيء من ذلك في عقله ولا في سلوكه بل كان المعروف لديهم بالعقل والحكمة والأمانة، فكيف يتهمونه الآن بشيء هم أعلم الناس بكذبهم فيه.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ[1] ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤١ ـ ٤٣].

جـ ـ ومن نظر إلى أوزان العبارات والجمل القرآنية في الآيات، والموازين الحساسة التي توزن بها. وليس للعرب عهد بمثل هذه الموازين الحساسة في الكلام إلا في موازين الشعر. فقالوا: إنه شاعر وما يقوله شعر، قالوا ذلك ولم يقفوا عندها طويلاً فجاء الرد عليهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

د ـ ومنهم من نظر إلى أثر القرآن في النفوس، فكل من استمع إلى القرآن كافراً كان أو مؤمناً وجد له حلاوة وجمالاً يحسه في نفسه سواء خضع لهذا الإحساس والتذوق فآمن به، أو رفضه جهلاً وعناداً.

وكثير من المؤمنين بالقرآن فارقوا أهلهم المشركين وديارهم وتحملوا الأذى في سبيل عقيدتهم، ولم يعهد هذا الانجذاب لأحد، والتأثر بكلام البشر إلا مع السحرة وسحرهم، فهم الذين يسيطرون على المسحور ويسلبونه الإرادة ويفرقون بالسحر بين المرء وزوجه والأب وابنه والأخ وأخيه. فقالوا عن محمد ﷺ: إنه ساحر وما أتى به السحر.

ورد القرآن عليهم هذه المقولة الظالمة في مواضع كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ

---

(١) كأن فرية الكهانة لم تجد رواجاً عند القوم فأقلعوا عنها في مرحلة متقدمة في المرحلة المكية حيث لم يرد الرد القرآني إلا في موضعين في سورة (الحاقة) وسورة (الطور)، وكلتا السورتين من السور المتقدمة في النزول في المرحلة الأولى من المراحل المكية.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٣ ـ ٤٦]. كما أن القوم إذا رأوا خارقة أظهرها الله سبحانه وتعالى على يد رسوله مما لا عهد للبشرية به، قالوا: إنه سحر، يقول تعالى عن صنيعهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٤ ـ ١٧].

فمقالتهم هنا عن رسول الله ﷺ إنه رجل مسحور من تلك الشبه التي لا تستند على أسباب وجيهة أو حقيقة معقولة، وإنما هو تبرير لبقائهم على معهودات الآباء، وملازمة الأعراف والعادات التي نشؤوا عليها.

لذا جاء الاستغراب والتعجيب من مقولاتهم هذه (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) أليس من المستغرب أن تطاوعهم ألسنتهم على هذه المقولة الجائرة وهم على يقين تام أنهم كاذبون فيها ظالمون معتدون في التطاول على من قيلت فيه، فهم يدركون أنهم ضالون تائهون، فمرة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وأخرى يقولون: به جنة، ورابعة يقولون: مسحور مغلوب على أمره، فلا يهتدون إلى الحق على الرغم من قربه وظهوره لأنهم لا يرغبون في التمسك به.

ويأتي الرد الإجمالي بعد الاستغراب من مقولتهم تلك، النابعة من ضلالهم وعدم تدبرهم لواقع حال رسول الله ﷺ وتفكرهم فيما جاءهم به، يأتي الرد مجملاً ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ [الفرقان: ١٠]. وللبركة والنماء والزيادة في عطاء الله سبحانه وتعالى دلالات في سياقات السورة، ففي افتتاحية السورة تنامى عطاؤه في إنزال الفرقان فاستحق الشكر والثناء على هذه النعمة العظمى بإنزال الكتاب وإرسال الرسول.

وهنا تنامى عطاؤه في النعم الدنيوية فلا يحدها شيء ولا ينقصها عطاء الليل والنهار فخزائن الله ملأى لا يغيضها البذل.

ولو كانت المكرمة تقاس بالعطاء الدنيوي لكان خير البشر وأفضل الرسل أولى بها؛ ولكنها الحكمة الإلهية في تربية الأمة «فلم يرد لرسوله أن يكون له كنز

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا أن تكون له جنة، لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته، ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته، فلا يقولن أحد من أمته ـ يكد لعيشه ـ: لقد كان رسول الله ﷺ مكفي الحاجة لا يعاني صراع العيش، ومن ثم فرغ لعقيدته ورسالته وتكاليفه، فلم يعوقه عائق مما أعاني، فها هو ذا رسول الله ﷺ يعمل ليعيش، ويعمل لرسالته، فلا أقل من أن ينهض كل أحد من أمته بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة وقدوته أمامه ـ ولقد انهال المال بعد ذلك على رسول الله ﷺ كي تتم التجربة من جانبها الآخر وتتم القدوة ـ فلم يدع هذا المال يشغله أو يعطله، فكان كالريح المرسلة في جوده، حتى يستعلي على فتنة المال ويرخص من قيمته في النفوس، وكيلا يقولن أحد بعد ذلك: إنما نهض محمد برسالته لأنه عاش فقيراً لا يشغله المال، فها هو ذا المال يأتيه غزيراً وفيراً ولكنه يمضي في دعوته، كذلك شأنه يوم أن كان فقيراً»[1] إن النفوس العظام لا يشغلها الحطام الدنيوي العاجل عن مقاصدها وغاياتها النبيلة، فهي تترفع عن السعي إليها إلا بما يكون وسيلة لتحقيق الغايات العظيمة وإذا وضعت تحت يديها أنفقتها في وجوهها التي تتحقق بها تلك الغايات. ولو بحثت عن الدوافع الحقيقية لمقولتهم هذه لوجدتها تكذيبهم بالساعة والبعث بعد الموت وهو شأن الكافرين جميعاً.

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

الحديث في هذا المقطع عن الشبهات التي أثارها القوم على رسول الله ﷺ وهو الشق الثاني من المحور، فالمحور كما بيّناه يدور حول تصديق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن الكريم. فالمناسبة واضحة لا تحتاج إلى توضيح.

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٥٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع الثالث

الدوافع الحقيقية وراء تكذيبهم

قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١ ـ ١٩].

المناسبة بين المقطعين:

تقدم في المقطع السابق الحديث عن شبهاتهم حول الرسول ثم انتقل[1] في هذا المقطع إلى الحديث عن السبب الحقيقي لتكذيبهم. فإن تكذيبهم مبني على إنكار الساعة، وجاء تقرير الساعة مفصلاً بسرد وقائع تقع بعد قيام الساعة إمعاناً في التقرير والتوضيح، فكأن وقوع الساعة والبعث بعد الموت للحساب أمر

---

(١) الإضراب إما انتقالي أو إبطالي، ويأتي الإضراب الإبطالي في صدد الرد على الكفار ومزاعمهم ومعتقداتهم وغيرها. أما الانتقالي فيأتي في تقريرات الله سبحانه وتعالى ابتداء وتدرجاً... وهنا جاء بأسلوب الإضراب الانتقالي (الإضراب عن توبيخهم لمقولتهم عن رسول الله ﷺ والانتقال إلى تعليل هذه المقولة) وهو أسلوب كثير الاستعمال في القرآن الكريم.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مفروغ منه، ولكن قد يلتبس عليهم صور أهل الشقاء فلا يعرفونها فجاء ذكر مصير المكذبين بالساعة والسعير المتقد عليهم.

إن الكافر لا يريد الإيمان باليوم الآخر لأسباب عدة منها:

الأول: الإيمان بالساعة يعني مفارقته لما هو عليه من الأمور التي اعتادها واطمأن إليها فإن كان ذا مال فارق هذه الملذات التي يوفرها له هذا المال، وإن كان ذا جاه ومنصب فارق هذه المكانة، وإن كان ذا نفر وأتباع فارقهم وفي كل ذلك حرمان وشعور بالوحشة والضيق.

الثاني: الإيمان بالساعة: يعني محاسبته على النعم التي أوتيها في الدنيا، فإن كان ذا مال حوسب عليه من أين اكتسبه وفيم أنفقه. وإن كان ذا جاه ومنصب ماذا عمل به وفيم سخر منصبه وجاهه. وإن كان ذا صحة معافىً في بدنه سئل عن عمره ووقته وشبابه فيم أبلاه وأفناه.

ولا شك أن كلَّ ذلك حسب موازين ومقاييس ربانية، وكل مخالفة في الالتزام بالمقاييس يعرضه للعقوبة والجزاء.

الثالث: الإيمان بالساعة: يعني الفضيحة والتشهير والخزي والندامة لمن قاوم دعوة الحق وكذّب المرسلين. فكم كان يتبجح صاحب الدعاوى ويتطاول على أهل الحق ويستخدم سلطانه ونفوذه وماله وجاهه لتحقير أهل الحق والنيل منهم وإذلالهم. ويوم القيامة ينادى على هؤلاء الطغاة البغاة على رؤوس الأشهاد فيؤتى بالمتكبرين فيكونون كالذر يداسون بالأقدام[1].

لكلِّ ما تقدم من أسباب ولغيرها لا يريد الكافر تذكيره بالموت، ومن ثم بالساعة وما يعقبها من حساب وجزاء. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلُوهم كل شيء من الصغار...». انظر مسند الإمام أحمد: ٢/ ١٧٩؛ ورواه الترمذي في أبواب صفة القيامة: ٤/ ٦٧، وقال عنه: حديث حسن صحيح.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إذن ليس المانع لهم من قبول دعوة الحق هو كون الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، أو لأنه لم ينزل معه ملك يؤازره، أو لأنه ليست له كنوز وجنات. فإنهم يعلمون أن الله قادر على كلِّ ذلك وأكثر، فقد زادت خيراته وتنامت نعماؤه على ما يتصورونه من متاع الدنيا، ولكن ليس ذلك هو السبب.

جاء في بعض الأحاديث أن الله خير نبيّه أن يجعله ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً فاختار رسول الله أن يكون عبداً رسولاً، فتواضع لله فرفعه عزَّ وجلّ فكان أشرف الأنبياء والمرسلين(١). وخيّره أن يقلب له جبال مكة ذهباً تسير معه حيث سار، فاختار أن يكون عيشه كفافاً يشبع يوماً ويجوع يوماً، وادخر ذلك للآخرة(٢).

المعنى الإجمالي للمقطع:

انتقل المقطع إلى ذكر الدافع الحقيقي للمشركين في تكذيب الرسول وإيراد الشبهات عليه وهو إنكارهم قيام الساعة والبعث بعد الموت للحساب والعقاب، وكما تقدم لأن في الإيمان بالساعة هدماً لملذاتهم وتنغيصاً لمتعهم الهابطة، وإثارة القلق لديهم في محاسبتهم على جرائمهم التي ارتكبوها في حياتهم الدنيا.

ولم تورد الآيات الكريمة الأدلة العقلية على قيام الساعة وتقرير إمكانها وقدرة الله عليها ـ كما جاءت في سياقات أخر ـ وإنما ذكر جزاء من ينكر الساعة ويكذب وقوعها، فالنار المستعرة مهيأة معدة لمن كذّب بها، إذا ظهرت للناظر وكانت على مرأى منهم سمعوا الدوي الهائل الذي يدور في جنباتها وهي تكاد

---

(١) روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل» فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبداً رسولاً». انظر المسند: ٢/ ٢٣١.

(٢) روى الإمام أحمد في المسند والترمذي في سننه في باب الزهد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض عليَّ ربي عزَّ وجلّ ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً... فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك». انظر المسند: ٥/ ٢٥٤؛ وسنن الترمذي، باب الزهد: ٤/ ٦. وقال: هذا حديث حسن.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تتميز من الغيظ والحنق من أقوال المجرمين العتاة وأفعالهم وأحوالهم تجاه رسالات ربهم، كلما ألقى فيها فوج سمعوا لها شهيقاً وهي تفور.

إنها مخلوقة كمخلوقات الله الحية التي نشاهدها تعتورها حالات الغضب والسخط وتزفر لتنفس عما في جوفها من الغيظ، وتشهق لتجذب إلى جوفها أفواج العتاة الطغاة، إنها تتطلع إليهم وهم في طريقهم إليها يساقون إلى حتفهم وهي تتلمظ غيظاً وحنقاً عليهم، إنه لمنظر رهيب يرونه، ومشاعر خائفة تسيطر عليهم، ولكن لا مناص فهم يساقون إليها سوقاً ويجرون إليها بالسلاسل مقرنين بالأصفاد.

ثم ليستقر بهم المقام أن يكبوا فيها كباً على وجوههم ومناخرهم، وتتعاظم أجسادهم لتتسع دائرة مس العذاب حتى يكون ناب أحدهم كجبل أحد[1] وتضيق جهنم ـ على سعتها بأحدهم حتى يكون كالزج للرمح، فلو كانوا في تلك الحال مطلقي الأيدي والأرجل لم يستطيعوا التفلت، فكيف وهم مقرنون بالأصفاد قرنت أيديهم إلى أعناقهم، فليس أمامهم إلا الدعاء بالويل والثبور والهلاك على أنفسهم، وعلى من تسبب في تحديد هذا المصير.

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ . . . ﴾ [الفرقان: ١٥].

حسب عادة القرآن الكريم ومنهجه في التزاوج بين الترهيب والترغيب والإنذار والبشارة جاء ذكر ما ينتظر المتقين من النعيم المخلد بعد ذكر ما أعد للأشقياء التعساء الذين كذبوا بوقوع الساعة من النار المستعرة. ويأتي ذلك على صيغة الاستفهام للتوبيخ والتقريع. ولما كان الدافع الحقيقي للمشركين في التكذيب بالساعة هو تعلقهم بمتعهم الدنيوية ورغبتهم في الاستمرار عليها وعدم زوالها، والإيمان بالساعة معناه انتهاؤها وزوالهم عنها. جاء التأكيد على الخلود في مثوبة المتقين، فالجنة خالدة لا تزول ولا تنتهي ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ

---

(١) روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أُحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث». انظر صحيح مسلم، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء: ٨/ ١٥٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥]. ولقطع دابر الظن أو توهم تناوب أصحابها عليها جاء التأكيد على خلودهم ودوامهم فيها ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ [الفرقان: ١٦].

وموضوع الزوال وعدم الخلود نقطة الضعف في كينونة الإنسان، فهو يرغب في الاستمرار وعدم الزوال، يرغب في الخلود في الدنيا وعدم الموت، ويرغب في خلود الصحة عليه وعدم الهرم، ويرغب في خلود الغنى وعدم زوال المال عنه، ويرغب في خلود الجاه وعدم الزوال عنه، ويرغب في خلود الاستمتاع والملذات وعدم الانتهاء... ولعل إبليس أدرك نقطة الضعف هذه في الإنسان فخاطب أبا البشرية آدم بقوله: ﴿... هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠].

فجاء التأكيد على الخلود مرة للجنة ونعيمها وثانية لدوامهم فيها واستمرارهم وهو أقصى ما تتطلع إليه الكينونة الإنسانية.

ثم التأكيد الثاني على تلبية الاحتياجات والرغبات (لهم فيها مايشاؤون) وما يشاؤون من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر، وأزواج وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهو وعد من الله قطعه على نفسه ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

وبعد تلك الصور المتقابلة لشقاء التعساء ونعيم السعداء، يتجه السياق إلى تحديد المسؤوليات في الحياة الدنيا، لقد أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، ومنح العقول، وخلق الناس على الفطرة، ووضع كل المقومات الذاتية في الإنسان وخلق كل الدلائل والبراهين الكونية لتشده إلى الهداية شداً، ومع ذلك وجد الضالون الناكبون عن طريق الحق، فمن المسؤول عن ضلال هؤلاء؟.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧ ـ ١٨].

وبعد ذلك الاستعراض للصور المتقابلة لشقاء التعساء ونعيم السعداء، تعرض صورة لاستجواب العابدين ومعبوديهم، كل عابد وما عبد من دون الله، سواء كان هذا المعبود صنماً من حجر أو شجر، أو كان مخلوقاً من جن أو أنس أو ملك، أو كان كوكباً من شمس أو قمر، أو كان مبدأ من علم أو قوم أو وطن، أو كان هوىً من جاه أو زعامة أو . . . ليقفوا في صعيد واحد أمام عابديهم، ويوجه الاستجواب الرهيب إلى المعبودين سواء كانوا على علم بعبادة هؤلاء لهم أم لم يكونوا عالمين ولا راضين ﴿. . . فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]!.

شيء بدهي أن لا يكون في هذا اليوم إلا مقولة الحق والصدق، فلا يستطيع أحد أن يخفي شيئاً أو ينكر شيئاً. فأما المعبودون من دون الله ممن لم يرضوا بعبادة الناس لهم كالملائكة والأنبياء والصالحين، ومن مخلوقات الله التي ليس من شأنها النطق في الحياة الدنيا كالكواكب والأشجار والأحجار، فتقول بلسان المقال أو بلسان الحال ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ. . .﴾ [الفرقان: ١٨].

ننزّهك[1] ونقدّسك عن سفه السفهاء وجهل الجهلاء، وإننا كنا في حياتنا الدنيا نعبدك ونثني عليك الخير كله، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، فكيف نتخذ من دونك أولياء، وكيف ندعو الناس إلى عبادتنا ونحن مشفقون من هذا اليوم والمساءلة فيه «إننا نعلم أنه لا ينبغي لنا فكيف نحاوله»[2].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ

---

(١) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعظيم لله تعالى في مقام الاعتراف بأنهم ينزهون الله عن أن يدعوا لأنفسهم مشاركته في الإلهية.

(٢) التحرير: ١٨/ ٣٣٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وإلى جانب توجيه الخطاب العام للمعبودين عامة، يخص بعض الأفراد والأجناس بخطابات خاصة. فمن الذين عبدوا من دون الله عيسى عليه السلام فيخص بخطاب: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

واشتهرت عبادة الملائكة لدى الجاهلين فيوجه لهم خطاب أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤٢].

كما جعلت أقوام بين الله وبين الجِنَّةِ نسباً فعبدوهم من دون الله ليقربوهم إلى الله زلفى، ويشفعوا لهم عند الله، وما دروا أنهم جميعاً محاسبون ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨ ـ ١٦٦].

أما أهل الغواية والضلال من جند إبليس فيتبرأون من عابديهم أيضاً ﴿. . . وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧].

لقد انقشع الزيف عن الآلهة الكاذبة، وظهرت حقيقة الداعين إلى الغواية، ودعا الأتباع آلهتهم على الرغم من ظهور الحق، استجابة للأمر الرباني، حيث يبلغ التوبيخ والنكاية بأهل الضلال مبلغه ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

إن فاصلاً من الكره والبغضاء يفصل بين الطرفين، وبعد أن تبرأ المتبوعون من الأتباع يأكل الغيظ قلوب الأتباع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

إذن فما سبب غواية هؤلاء القوم وضلالهم عن سواء السبيل، إن لم يكن للمتبوعين شأن في دعوتهم إلى الضلال.

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى السبب الأساس في ضلالهم وهو بطرهم واستمتاعهم بما منحوا من الهبات والمزايا والمنح، ولئن كان السياق في الكفار عامة فالمشركون من قريش يدخلون دخولاً أولياً في هذا المجال؛ لأن السياق يخصهم وهم الذين اتخذوا المواقف السابقة من القرآن الكريم ومن الرسول ﷺ.

فمن صور ما منحوا أن هيأ الله جل وعلا لهم حياة رغيدة حيث كان يجبى إلى أم القرى ثمرات كل شيء يقول عزَّ من قال: ﴿... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص ٥٧].

وأمن لهم رحلة الشتاء إلى اليمن السعيد، ورحلة الصيف إلى الشام المبارك، وكل القبائل ترعى مكانة قريش لأنهم سدنة بيت الله الحرام ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ ـ ٤].

وجعل لقريش المكانة والزعامة في قلوب القبائل العربية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وكان عليهم أن يدركوا حقيقة هذه النعم ويؤدوا شكرها إلى واهبها، ولكنهم بطروا وعتوا واستكبروا، وسخروا هذه النعم في الصد عن سبيل الله ومحاولة إطفاء نور الله. وتعذيب عباد الله. ﴿... وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد استحقوا بصنيعهم هذا الهلاك والبوار، فقد خلت نفوسهم من الخير وأصبحت الملذات والمتع الهابطة تسيطر على عقولهم ومشاعرهم، وأصبحت القلوب قاسية والعقول مظلمة والنفوس خاوية، إنه البوار الذي لا ينتج شيئاً كالأرض البور والصحراء القاحلة.

ويعود السياق القرآني إلى تبكيت الضالين مرة أخرى، كيف كنتم تحملون هؤلاء المعبودين مسؤولية ضلالكم ها هم قد كذبوكم[1] في قولكم ولم يأمروكم بشيء مما قلتموه، فما التوجيه عندكم لما كنتم عليه من ضلال، وما المعدل الذي يعدل بكم عن المصير المحتوم السيئ. ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

ولا يجدون من ينقذهم من هذا العذاب الرهيب، إنه العذاب الكبير للظالمين الذين اتخذوا مع الله شركاء، وكذبوا بكتابه وعادوا رسوله، ولم يرفعوا لدعوة الحق رأساً ولم يلقوا لنداء الله أذناً صاغية.

المناسبة بين المقطع الثالث والمحور:

في هذا المقطع نوع من الاستطراد، فبعد ذكر الدافع الحقيقي للمشركين لتكذيب الرسول وهو تكذيبهم بالساعة استطرد السياق إلى ذكر ما يجري للمكذبين عند قيام الساعة وألوان العذاب التي يلاقونها، والتوبيخ الذي يتعرضون له نتيجة المجابهة بينهم وبين معبوديهم.

فالعلاقة بالمحور إذن هو أن إثارة الشبهات حول الرسول ما هو إلا من باب ذر الرماد في العيون ومحاولة تبرير المواقف وإخفاء الدافع الحقيقي للتكذيب.

* * *

---

(١) قال أهل المعاني: «بما تقولون» الباء بمعنى في. والفاء فصيحة في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ تقديره: إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم في مقالتكم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع الرابع

سنّة الله في اختيار الرسل وعادة المكذبين المستكبرين

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٠ ـ ٢٤].

المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد ذكر الدافع الحقيقي لتكذيبهم القرآن المجيد، واتخاذهم الموقف المعادي من رسول الله ﷺ، وسوق الشبه والتهم إليه، واستطرد إلى ما يقع يوم القيامة من ألوان العذاب لأمثالهم، عاد السياق في هذا المقطع إلى رد شبهتهم مباشرة ببيان سنّة الله في المرسلين، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، فليس محمد ﷺ بدعاً من الرسل، وليس هو الرسول الوحيد المختار من البشر بل جميع الأنبياء كانوا على شاكلته يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق لتتحقق حكمة الله تعالى في ابتلاء الناس.

المعنى الإجمالي:

لا تلقِ بالاً يا محمد لما يقول هؤلاء عنك، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، وقد اصطفاك ربك لحمل رسالته إلى العالمين، وإن الله مبتليك بهذا التكليف ومبتلٍ بك، فلا تتردد في المضي لتبليغ رسالة ربك.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فلست بدعاً من الرسل، وما جرى على أنبياء الله ورسله من قبلك جار عليك، من التكذيب والاتهام والإخراج والقتال، ولكن العاقبة للمتقين ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ...﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣].

إن هذه الدار دار ابتلاء وفتنة فإن رسول الله ﷺ فتنة للمشركين إذ زعموا أن حاله مناف للرسالة فلم يؤمنوا به[1]، وكان حال المؤمنين في ضعفهم فتنة للمشركين إذ ترفعوا عن الإيمان بالدين الذي يسويهم بهم، فقد كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأضرابهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم

---

(١) روى الإمام مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي: أن رسول الله ﷺ قال: ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرّق قريشاً، فقلت: رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسةً مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبَرَ له، الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب، والشنظير الفحّاش...». (صحيح مسلم) بشرح النووي كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ـ أول حديث: ١٧/ ١٩٦ ـ ١٩٩، المطبعة المصرية بالأزهر ـ ط الأولى ـ ١٣٤٩هـ.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قبلنا عمار بن ياسر وصهيب وبلال ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة، وهذا كقول صناديد قوم نوح: لا نؤمن حتى تطرد الذين آمنوا بك، فقال نوح عليه السلام ﴿... وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣٠].

وقال تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٣].

ولما طلب رؤوس الكفر تخصيصهم بمجلس ليسمعوا من رسول الله لا يحضره الضعفاء والفقراء أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إن هذا التلوين في المطالب التعجيزية نابع من نفوسهم المملوءة كبراً وعناداً وأشراً وبطراً قد سدت منافذ النور إلى قلوبهم الخاوية، لا يعلمون سنن الله في هذه الحياة الدنيا، ولا يعرفون بين الممكن وغير الممكن، ولا يدركون عواقب الأمور وما يترتب على مطالبهم... يطلبون إنزال الملائكة عليهم، والملائكة لا تنزل على الأرض إلا بمهمة، إما التأييد والنصرة لأولياء الله، أو إنزال العذاب على أعداء الله.

فهؤلاء القوم يعرفون أنفسهم، فليسوا بأولياء الله، فنزول الملائكة عليهم ليس في صالحهم. ولو نزلت عليهم الملائكة على صورتها الحقيقية كيف يكون الموقف؟ ألا تنخلع قلوبهم من الفزع والرعب والهيبة فقد خلقت الملائكة أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ويزيد الله في خلقهم ما يشاء. ويسد الجناحان من أجنحتها ما بين المشرق والمغرب، فهل يطيقون رؤيتها عندئذٍ.

إن الإنسان مخلوق ضعيف لا يستطيع الصمود أمام عجائب مخلوقات الله وكان من رحمة الله به أن أخفى عنه أموراً كثيرة وجعلها من عالم الغيب حتى

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تستقيم حياة الإنسان على هذه الأرض.

وطلبوا ثانية أن يروا ربهم، ولم يعلموا أن هذا مستحيل في الحياة الدنيا، وهذا يدل على عدم علمهم بالممكن والمستحيل في هذه الحياة الدنيا، ولو كان لهم علم بالنبوات والرسالات لقرؤوا في تاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم ما يصرفهم عن هذا السؤال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفي وقائع تاريخ بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ـ٥٦].

لقد تجاوز القوم حدودهم وبلغ الطغيان بهم مدىً بعيداً، فتطاولوا إلى مالا ينبغي التطاول إليه، ولولا أن الله أرسلك يا محمد رحمة للعالمين، فأجَّل العقوبة العاجلة عن الناس، لأنزل عليهم الملائكة بالعذاب ولكن ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فقل لهم: إنكم سترون الملائكة يوم القيامة ولكنها رؤية تسوءهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، فلا بشرى يومئذٍ لكم أيها المجرمون، وستستجيرون ولا مجير، وتستعيذون ولا ملجأ ولا محجر، وكعادتهم عند الوقائع المخيفة الرهيبة ستقولون حجراً محجوراً، وعوذاً معيذاً ولا محجر ولا معاذ من الله المنتقم الجبار[1].

أما ما اغتر به السفهاء من قولهم: إنا نطعم الطعام ونقري الضيف ونحن

---

(١) قال الخليل وأبو عبيدة: كان الرجل إذا رأى الرجل الذي يخاف منه أن يقتله في الأشهر الحرم يقول له: حجراً محجوراً، أي حرام قتلي، وهي عوذة.
انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٩/ ٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سدنة بيت الله، فلن تنفعهم يوم القيامة، فقد عوضوا عنها في حياتهم الدنيا بالصحة والجاه والأمن في الديار.

أما قاعدة التوحيد، ومفتاح الشهادتين (لا إلـه إلا الله محمد رسول الله) فمن لم تكن لديه هذه البطاقة لا يعتد بعمله، ويكون عمله هباءً منثوراً لا استقرار له ولا وجود[1].

أما أصحاب بطاقة التوحيد والعمل الصالح، فهم آمنون مستقرون في أحسن هيئة وفي خير مقام وأفضل مقيل. في رحمة الله خالدون.

المناسبة بين المقطع الرابع والمحور في السورة:

من الملاحظ أن المقطع يبدأ بأمر له صلة مباشرة بالمحور، ثم يكون الاستطراد إلى جوانب تحمل المخاطبين من المعاندين المستكبرين على إعادة النظر في مواقفهم تجاه هذا الأمر الأساس، فالمقطع هنا بدأ ببيان سنّة الله في الرسل، وأنهم من البشر ويعتورهم ما يعتور البشر من الأكل والشرب والسعي لكسب القوت، ثم كان الاستطراد لبيان واقع القوم، وأن استكبارهم وطغيانهم دفعهم إلى أن يطلبوا من الرسول رؤية الله أو إنزال الملائكة عليهم، فجاء الرد عليهم في صيغة وعيد وتهديد، ليقلعوا عن عنادهم وطغيانهم، وأنهم مفتونون بدنياهم وعليهم أن يفكروا في رسالة رسولهم وفي واقع أمره ليدركوا صدقه.

* * *

---

(١) قال ابن كثير في تعليل جعل أعمالهم هباء منثوراً: «وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذٍ». انظر تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣١٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع الخامس

أحداث الساعة وندم الظالمين بعد فوات الأوان

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٥ ـ ٢٩].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

لما أجيبوا عن أسئلتهم المستحيلة النابعة عن طغيانهم وكبرهم وعتوهم، كان الاستطراد لبيان أحداث تقع يوم القيامة، وكيف يتبرأ الطغاة بعضهم من بعض، وهم يعضون أصابع الندم على فوات مصاحبة الرسول ﷺ الذي جاءهم بالحق.

المعنى الإجمالي للمقطع:

بعد بيان سنّة الله في إرسال الرسل وأن إرسالهم نوع من الابتلاء للبشر، فلابد من استعمال ملكة الإدراك التي وهبها الله سبحانه وتعالى لعباده في معرفة الحق والصواب، وقد زود المرسلون بالبينات التي تقيم الحجة على العباد، بالإضافة إلى العقل الراجح والصفات الخلقية السامية والسيرة المطهرة والسلوك المستقيم حيث تتمثل فيهم الكمالات البشرية في أبهى صورها. كلّ ذلك كافٍ لتصديقهم، ولكن المستكبرين يصرّون على مطالب يمليها عليهم عنادهم وطغيانهم، وبعد بيان أن تلك المطالب منها المستحيل ومنها ما ليس في مصلحتهم إن تحققت، جاء ذكر نزول الملائكة الذين طلبوا أن تنزل عليهم في الحياة الدنيا،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إنهم ينزلـون في يوم تتبدل فيها السنن الكونية، فالسماء التي تظلّهم وهي لهم سقف محفوظ تشقق بالغمام، وتنزل أفواج الملائكة وتنتهي الحياة على الأرض، ولا ملك يومئـذٍ لأحدٍ إلا للملك الديـان «ثم يقول الله: أنـا الملك أين ملوك الأرض»[1] يومئذٍ تظهر الحقائق وتكشف الأستار وتزول الغشـاوة عن القلوب والأبصار. يومئذٍ يحس الكافر الذي ستر عقله، وحجبه عن التفكير الصحيح، أن الرسول الذي جاءه كان رسول صدق، وأن رسالته كانت لإنقاذه، وأمثاله من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وأن القرآن الذي أنزل عليه كان العروة الوثقى من تمسك بها أو صلته إلى رضوان الله. ولكن قرناء السوء صرفوه عن الحق والنور المبين.

يومئذٍ تأكل الحسرة قلبه، والندم نفسه، يعض على يديه من الحنق والندم على الفرصة التي فاتته فلم يتبع سبيل الرسول، لقد كان قرناء السوء يوغرون صدره على الرسول، ويحولون بينه وبين نور الحق، أين هم الآن؟! لقد تخلوا عنه، ليته لم يتخذهم أخلاء في الحياة الدنيا، إنهم كانوا أعداء حقيقيين ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

لقد حذَّرهم الرسول من هؤلاء القرناء وكان من جملة ما أنزل عليه وبلغه القوم:

إنّ قرناءكم من الشياطين يزخرفون لكم الحياة الدنيا فلا تغتروا بهم: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ـ٣٩].

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض». انظر الجامع الصحيح، كتاب التفسير: ٦/ ٣٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إنهم يزينون لكم أعمالكم وأحوالكم لتستمروا على ما أنتم عليه ولا ترفعوا لدعوة الحق رأساً، ولا تسمعوا من الرسول ما جاءكم به من آي الذكر الحكيم: ﴿ . . . ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٥ ـ ٢٦].

هذه أحوالهم في الحياة الدنيا، التزيين، والإغواء، والصد عن الحق، فإذا جد الجد وتكشفت الحقائق كان التخلي وإظهار العداوة والبغضاء ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة قَ: ٢٧].

ومن صور الحوار بين الأخلاء والقرناء والأتباع والمتبوعين هذه الصورة: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢].

إنه الخذلان المبين ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

إنه يتركز على إزالة الحجب بينهم وبين دعوة الحق التي جاء بها رسول الله ﷺ، وبيان الصلات والمودات التي تحول بينهم وبين الرؤية الصحيحة، ومعرفة الأولياء والأعداء على حقيقتهم، فكلها صور ووقائع تصب لإزالة الغشاوة عن البصائر والتعرف على الصادق المصدوق ودعوته.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع السادس

محاولات للتشكيك في القرآن

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٠ ـ ٣٤].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

بعد ذكر الوعيد بالمصير السيِّئ الذي ينتظر المكذبين بالرسول ورسالته يوم القيامة، يوم تخلى الأخلاء عن بعضهم وتناكر القرناء وندمهم حيث لاينفع الندم، جاء الحديث هنا عن موقفهم من القرآن ومحاولاتهم للتشكيك فيه وإيمانهم أنه ليس على سنّة الكتب المنزلة، وبيان الحكمة في تنزيله منجماً.

المعنى الإجمالي للمقطع:

بعد إلقاء القوم شبهاتهم على شخص الرسول ﷺ، هجروا ما جاءهم به من الهدى والبيّنات، ولا شيء يؤثر في نفس الصادق عندما يرى إعراض الناس عن الصدق، واتباعهم الدجل والكذب.

ولا ألم أشد أثراً في نفس المصلح، عندما يرى القوم يتركون ما فيه سعادتهم وعزّهم وفلاحهم، ويتمسكون بما يعود عليهم بالهلاك والفساد والبوار. إنهم يتهافتون في النار كالفراش، والمصلح يحاول إبعادهم عنها «إني آخذ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بحجزكم من النار»[1] إن المصلح يتحمل المشاق، يجهد نفسه ويسهر ليله ويتخلى عن مصالحه الدنيوية، ويفوت على نفسه فرص الثروة والغنى والمتعة، في سبيل إيصال الخير الذي يؤمن به إلى الناس، وهو يبتغي بذلك رضوان الله جلَّ جلاله، فكم يكون ألمه شديداً عندما يقابل معروفه بالنكران، وإحسانه بالإساءة، وحرصه بالإهمال واللامبالاة.

لقد كانت الآيات تنزل المرة تلو المرة تواسي رسول الله ﷺ، وتسليه عما يجد من القوم من مواقف وتصرفات في غاية السوء والقحة، فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

إنَّك قد بلَّغت رسالة ربك ولم تدخر وسعاً في إيصال الخير إلى القوم، فإعراضهم عن دعوة الحق وعدم إيمانهم بما جاءهم من القرآن المجيد، ليس أمارة على تقصيرك في تبليغ الدعوة إليهم، وإنما هو نتيجة ظلمة قلوبهم وقسوتها، فلا يستحقون التأسف عليهم.

إن القوم قد زينت لهم شياطين الإنس والجن أعمالهم فهم في غيهم سادرون، ولا يلتفتون إلى البراهين والدلائل مهما كانت من الوضوح على توحيد الله وصدق ما جئتهم به.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، فالإيمان والهداية والكفر والطغيان كلها بمشيئة الله وإرادته، فمن أدرك ذلك هان عليه سلبيات القوم وتصرفاتهم.

---

(١) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل ينزعهن، ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها» انظر صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي: ٧/ ١٨٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ١ ـ ٤].

إن مهمة الرسل محصورة في التبليغ بشقيه: البشارة والإنذار، وليسوا مسؤولين عن تحقيق الهداية لهم:

﴿ . . . فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ [الشورى: ٤٨].

فشكوى رسول الله ﷺ إلى ربه أن القوم قد هجروا القرآن نابع من هذا الحرص على هدايتهم وهو ابن قريش البار بأهله، الواصل لرحمه.

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٨ ـ ١٢٩].

لقد هجر القوم القرآن:

أ ـ هجروا الاستماع إليه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

ب ـ وإذا كانت آيات الله تُتلى، وسمعوها من غير إرادة منهم أعرضوا عنها وهجروها كأن لم يسمعوها واتخذوها هزواً ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ٩].

جـ ـ وهجروا القرآن حيث استبدلوا به لهو الحديث من لغو القول وسيئه، وما يلهيهم عن آيات الله ويصرفهم عنها ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٦ ـ ٧].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

د ـ ومن صور هجر القرآن ترك العمل بهداياته وإن قرأه وآمن به.

هـ ـ ومن صور هجر القرآن ترك تدبره وتفهم معانيه.

و ـ ومن صور هجر القرآن ختمه في أكثر من شهر.

ز ـ ومن صور هجر القرآن ترك الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب.

لقد كان سبب هجرهم حيلولة المجرمين بين القوم وبين الاستماع إليه:

ـ حيث كان يجلس النضر بن الحارث ويقول: هلموا إليّ لأحدثكم عن رستم واسفنديار وأساطير الفرس، فما جاءكم به محمد من هذا النوع من الأساطير. وكان رجلاً فصيحاً يجيد سبك القصص والحوادث فكانت محاولاته وأساطيره من دوافع هجرهم للقرآن[1].

ـ وكانت قريش تتصل بالوفود القادمة إلى المواسم كمواسم الحج وأسواق العرب وتقول لهم: لقد ظهر بيننا مجنون فلا تستمعوا إليه[2].

ـ وكان بعضهم يتصل بالأفراد القادمين إلى مكة ليحذرهم من الاتصال برسول الله ﷺ والسماع منه ويقول: إنه ساحر يسحر العقول، كما جرى لأبي الطفيل الدوسي[3] حيث بلغ به الأمر أن يضع في أذنيه الكرسف (القطن) حتى لا يصل إلى سمعه شيء من غير إرادة منه.

ـ وكان يوصي بعضهم بعضاً أن لا يجلسوا إلى محمد ويستمعوا منه حتى لا يفتنوا الصغار والنساء والسفهاء... كما كان الحال في حادثة الأخنس بن

---

(١) انظر الرحيق المختوم، للمبارك كفوري ٩٨.

(٢) انظر ما رواه ابن هشام في السيرة من خروج أبي لهب خلف رسول الله ﷺ في موسم عكاظ وكلما جلس رسول الله ﷺ إلى قوم ليحدثهم جاء أبو لهب فيقول: نحن أهله وعشيرته فلا تسمعوا له إنه مجنون. انظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للصالحي: ٢/ ٤٥١.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٤١٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

شريق وأبي جهل وأبي سفيان[1].

إنَّ التُّهم التي وجهها القوم إلى رسول الله ﷺ والشبهات التي حاولوا إثارتها حول شخصه وكذلك ما قالوه عن القرآن الكريم من افتراءات وادعاءات أنتجت أمرين قصد إليهما القوم وهما:

- الحيلولة بين الناس وبين القرآن.

- والعداء لرسول الله ﷺ.

فتحدثت الآيات الكريمة عن الأمرين ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٠ـ ٣١].

ومقابل هذا الحرص من رسول الله ﷺ على هدايتهم وإيصال الخير إليهم واقتباسهم من نور القرآن. جاءت تسلية رسول الله ﷺ، إن هذا الصد عن دعوة الأنبياء ومحاولة المجرمين الحيلولة بين الرسول وبين الأقوام بالترهيب والترغيب كل ذلك سنَّة من سنن الله في المجتمعات، وللرسول ﷺ أسوة بإخوانه من المرسلين

لقد كان المجرم الأثيم فرعون هذه الأمة أبو جهل، وكان يتبعه في ذلك المستهزئون، يشكلون العقبة في سبيل انتشار دعوة الحق، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٨٧ـ ٩٩].

«وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي، فدعوة الحق إنما تجيء في

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٣٥٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أوانها لعلاج فساد واقع . . . ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون الذين ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلونه من ناحية ، والذين تتفق مشاريعهم مع هذا الفساد، وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء، والذين يجدون فيه ستراً للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها . . . فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعاً عن وجودهم، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه، وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر، وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري، ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن، وكذلك المجرمون، فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق، يستميتون في كفاحها، وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية، لأنها تسير مع خط الحياة، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله، والذي تبلغ عنده الكمال المقدَّر لها كما أراد الله ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١][1].

ـ ولكن مظاهر الصد والهجران هذه نابعة عن أمور لا تتعلق بالقرآن نفسه وربما تغيَّرت هذه الأمور والمظاهر الخارجية وأزيلت العقبات بين القوم وبين القرآن فعندئذ يحدث الاتصال ومن ثم التأثر والاتباع . أما إذا استطاعوا التشكيك في القرآن نفسه ومصدره، فلو أزيلت العقبات فيما بعد فإن الشكوك تبقى في نفوس الناس .

لذا جاءت محاولة المجرم الأكبر في إلقاء ظلال من الشكوك على أن القرآن لم يكن على سنن الكتب المنزلة، فلم يكن معهوداً أن ينزل الكتاب منجماً مفرقاً، بل كانت الكتب السماوية تنزل جملة واحدة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢]، إنه قول لا طائل تحته ومماراة لا نتيجة لها، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقاً .

كما أن اللجوء إلى إثارة مثل هذه الشبهة دليل على إفلاسهم في إثارة الشبهات التي تشكك في القرآن . ولكنهم أثاروها لعلها تورث شكاً، وبعضهم قد

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٦٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سمع أن التوراة كتبت لموسى عليه السلام فلماذا لا ينزل القرآن من السماء مكتوباً جملة واحدة . . .

ويأتي الرد القرآني على مقترحهم الشكي ببيان الحكمة في نزوله مفرقاً:

الحكمة الأولى ـ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]:

تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ومعه المؤمنون بنزوله مفرقاً منجماً. ويمكن إيراد صور لهذا التثبيت:

أ ـ إن القرآن نزل على أمة أمية أناجيلها في صدورها، ونزوله جملة واحدة قد يعجز الصحابة عن استيعابه وحفظه.

أما النزول مفرقاً فيعطي مهلة للحفظ والتدبر والتطبيق، فكان صحابة رسول الله ﷺ لا يتجاوزون العشر من الآيات حتى يحفظوها ويعلموا المراد منها ويطبقوها في حياتهم ثم ينتقلون إلى غيرها.

ب ـ لو نزل القرآن جملة واحدة ثم انقطع الوحي والاتصال بالملأ الأعلى، لأدى إلى دخول اليأس والملل إلى القلوب، أما تجدد الوصول وتتابع الرسول في الاتصال كل ذلك يسكن قلب المحب بتواصل كتب المحبوب. وتثبيت لقلبه أن ربه ما قلاه ولا ودعه ولا تخلى عنه.

جـ ـ إن تكرار زيارة الملك عند نزول الوحي انشراح لصدر رسول الله ﷺ وتلذذ بالعالم الروحاني، وفي هذا اللقاء غذاء للروح، ولذلك ورد أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٤ ـ ٦٥]»[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ١/ ٢٣٤؛ والبخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة مريم: ٥/ ٢٣٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

د ـ اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون تربية هذه الأمة بالتدريج وذلك من لطف الله سبحانه وتعالى بها ورأفته، فجاء تشريع بعض الأحكام في بداية الأمر، ثم نسخ حكمها إلى الأخف للتيسير، أو الأثقل لمضاعفة الأجر والثواب، أو المماثل ابتلاءً وتمحيصاً، ونزول القرآن جملة يتنافى مع هذا التدرج وتحرم الأمة من هذه المزية العظيمة[1].

هـ ـ إن تنزيله مفرقاً وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها، أدخل في الإعجازوأنور للحجة من أن ينزل كله جملة واحدة، وفي إظهار الحجة عليهم وإثبات عجزهم تثبيت لقلب رسول الله ﷺ.

و ـ لو لم ينزل القرآن منجماً على حسب الحوادث لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام وذلك من تمام إعجازها.

الحكمة الثانية ـ ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]:

الترتيل: مأخوذ من الرتل، وهو التتابع في ترسل وتثبت مع التبيين، ووجه الحكمة في هذا الترتيل أن الآيات أو السورة إذا نزلت مع الحادثة، أو قبلها مباشرة، أو بعدها، فإن ذلك أدعى إلى الفهم وأقوى لمعرفة المضمون وأرسخ في الذهن.

---

(١) في تفسير القاسمي (محاسن التأويل): يذكر المفسِّرون ههنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة، كنزول بقية الكتب جملة ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة صحيح، فيأخذون لأجله في سر مفارقة التنزيل له، والحال أن القول بنزولها دفعة واحدة لا أصل له، وليس عليه أثارة من علم،ولا يصححه عقل، فإن تفريق الوحي وتمديد مدته بدهي الثبوت، لمقدار مكث النبي، إذ ما دام بين ظهراني قومه، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة، ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين يتجلى له ذلك واضحاً لامرية فيه، وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك، وما كلّ كلام معرض به، وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص، وتعنت متفنن فيه. والله أعلم. محاسن التأويل: ١٢/ ٣٥٧٧.

وإلى مثل هذا القول ذهب الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: ١٩/ ١٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحكمة الثالثة ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]:

إن استفسارات القوم لا تنتهي، وتساؤلاتهم ليس لها حدود، وكلها من قبيل التعجيز وإثارة الشبهات. وكل تساؤل يحتاج إلى جواب أو رد، فلو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لم يتمكن رسول الله ﷺ من إجابتهم أو الرد عليهم في كل مرة، لذا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

وهي كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فمهما أتوا بسؤال عجيب كأنه مثل في البطلان والغرابة إلا أتاهم جلَّ جلاله بالجواب الحق الذي لا محيد عنه. وبما هو أحسن معنى ومؤدى من مثلهم، أي من سؤالهم.

فلا يأتونك بحجة وشبهة إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم. وهذه الآية كالفذلكة الجامعة تعم ما تقدم وما عسى أن يأتوا به من الشكوك والتمويه بأن كل ذلك مدحوض بالحجة الواضحة الكاشفة لترهاتهم. فقد تقدم من أمثالهم التي قالوها عن القرآن وعن الرسول.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾ [الفرقان: ٣٢].

هذه جملة من الأمثال التي أتوا النبي ﷺ بها بقصد إفحامه وتعجيزه. فإذن المعنى: ولا يأتونك بشبه يشبهون به حالاً من أحوالك يبتغون إظهار أن حالك لا يشبه حال رسول من الله، إلا أبطلنا تشبيههم وأريناهم أن حالة الرسالة عن الله لا تلازم ما زعموه(١).

فلا يأتونك بشيء من ذلك إلا جئناك بالصواب وما هو الحق في الاستدلال فيكشف عن الحق ويكون أحسن وقعاً في نفوس السامعين من مغالطاتهم...

ثم تختم الآيات ببيان مصير المعاندين العتاة الطغاة، الذين ظهر لهم الحق، ومع ذلك بقوا على عنادهم. فهؤلاء يحشرون على وجوههم، زيادة في إذلالهم وتحقيرهم وخذلانهم، وشتان بين الفريقين ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الملك: ٢٢].

والذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم(٢)، هم المنكسون على رؤوسهم.

لقد قصدوا بسوق الأمثال تنقيص شأن الرسول ﷺ، فذكروا بأنهم أهل شر المكان وضلال السبيل، دون النبي ﷺ، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمشركين وذم لهم.

كما جاء في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور مختصراً: ١٩/ ٢١.

(٢) في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً قال: «يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة! قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة». كتاب التفسير: ٦/ ١٤، ط. إستانبول.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٧].

المناسبة بين المقطع السادس والمحور:

هذا المقطع وثيق الصلة بمحور السورة فإن محور السورة كما تقدم هو المعجزة والرسول، أو تصديق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن، وهذا المقطع يتعلق برد شبهة للمشركين حاولوا إلقاء ظلالها على القرآن، وبالتالي للتشكيك في صدق الرسول ﷺ.

فقد قالوا: لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة كالكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين حيث كتبت لهم وحملوها إلى أقوامهم مكتوبةً. والقرآن ينزل نجوماً حسب الوقائع والأحداث؟ فجاء الرد الإلهي عليهم ببيان الحكمة من نزوله مفرقاً منجماً كما تقدَّم تفصيله. إذن فالمقطع شديد العلاقة بالمحور وحديثه في صلب المحور.

* * *

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقطع السابع

تسلية رسول الله ﷺ ببيان سنّة الله في المكذِّبين

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٥ـ ٤٠].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

بعد رد شبهة القوم حول نزول القرآن ببيان الحكمة من نزوله مفرقاً وليس جملة، جاء ذكر مصير أقوام كذّبوا رسلهم ولم يؤمنوا برسالاتهم وفي ذلك تهديد ووعيد لقريش حيث سلكت مسلك أولئك، وتسلية لرسول الله ﷺ ووعد له بانتصاره على المكذبين، كما نصر الله عزَّ وجلّ رسله على الأقوام السابقين.

المعنى الإجمالي للمقطع:

ذكر في هذا المقطع مصير أقوام من المعروفين للمشركين من قريش، ليعتبروا بما آل إليه هؤلاء الأقوام، فجانب الوعيد والتهديد أبرز في سياق القصص التي سيقت، كما أن الإجمال والإيجاز المعجز في قصص الأقوام أظهر جانب الهلاك والتدمير فيهم، ولقد اقتصر على ذكر الأقوام ولم يذكر أسماء المرسلين إليهم إبرازاً لهذا الجانب وهو وعيد قريش، فلم يذكر أسماء أنبياء كلٍّ مِنْ عاد

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وثمود وأصحاب الرس والقرية التي أمطرت مطر السوء. وفيما يلي بيان لنقاط فيها التلميح والإشارة إلى وجه الشبه بين قريش والسابقين:

أولاً ـ في قصة موسى عليه السلام نقاط موضحة ومعرِّضة بقريش وموقفها من رسول الله ﷺ:

أ ـ في ذكر الكتاب في معرض ما أوتي موسى عليه السلام من الوحي تعريض بجهالة المشركين القائلين: «لولا نُزل عليه القرآن جملة واحدة»، فإن الكتب التي أوتيها الرسل ما كانت إلا وحياً نزل منجماً فجمعه الرسل وكتبه أتباعهم(١).

ب ـ والتعرض هنا إلى تأييد موسى بهارون، تعريض بالرد على المشركين إذ قالوا: «لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً»، فإن موسى لما اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيد بملك ولكنه أيد برسول مثله.

جـ ـ في وصف القوم ـ القوم الذين كذبوا بآياتنا ـ وعند القول لموسى وهارون (اذهبا) لم يكن قد وقع التكذيب من القوم، وإنما عجّل ذكر وصف القوم بالتكذيب، للإفادة أن موسى وهارون بلغا الرسالة، وأظهر الله منهما الآيات، فكذب بها قوم فرعون، فاستحقوا التدمير، تعريضاً بالمشركين في تكذيبهم محمداً ﷺ، وتمهيداً للتفريع بـ(دمرناهم تدميراً) الذي هو المقصود من الموعظة والتسلية.

وقد سيقت القصة بإيجاز معجز حيث ذكر منها حاشيتاها: أولها وآخرها لأنهما المقصود بالقصة وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم.

ثانياً ـ وفي قصة نوح عليه السلام جوانب تعريضية بمشركي قريش أيضاً:

أ ـ إبراز قصة قوم نوح والاهتمام بها على طريقة التوكيد بأسلوب فعل

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩/ ٢٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الاشتغال (وقوم نوح..) فقوم منصوب بفعل محذوف يفسره المذكور بعده (أغرقناهم) وفي ذلك توكيد وإبراز لقصتهم لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أكّد بضميرهم.

ب ـ في قوله تعالى: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ تعريض بجانبين وقعت فيهما قريش ـ في مجيء (لمّا) الظرفية إفادة سرعة وقوع الجزاء بمجرد وجود السبب، فلما وجد التكذيب كان الإغراق.

ـ وفي مجيء كلمة (الرسل) بصيغة الجمع وهم لم يكذبوا إلا رسولهم نوحاً، تعريض أيضاً بالمشركين، فتكذيب رسول واحد تكذيب لسائرهم جميعاً، لأن دعوتهم واحدة، والوحي المنزل عليهم من مشكاة واحدة، وسنن الله فيهم مطردة، وكانوا قالوا لنوح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] كما تقول قريش لرسول الله ﷺ.

جـ ـ في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بتواتر خبر إغراقهم للأمم جميعاً، وهو تعريض أيضاً بالمشركين، فمصير الذين يكذبون رسلهم مثل مصير قوم نوح في إنزال العذاب الذي أصبح علامة ودليلاً للمكذبين.

د ـ وفي قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تذييل القصة بهذه القاعدة العامة لبيان مصير كل ظالم يوم القيامة، ففي الدنيا العذاب، وفي الآخرة عذاب أليم

وفي التعبير بالاسم الظاهر (الظالمين) ليشمل قريشاً فهم قد ظلموا عندما قالوا عن القرآن وعن الرسول: ﴿... إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

ثالثاً ـ وأدمج ذكر ثلاثة أقوام بطريق الإشارة إليهم لأنهم كانوا معروفين للعرب حيث كانوا يقطنون جزيرتهم:

أ ـ أما عاد فكانت تسكن الأحقاف جنوب جزيرة العرب في حضرموت وما

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جاورها، وقد أرسل إليهم نبي الله (هود) عليه السلام. ودمروا بالريح الصرصر العاتية.

ب ـ وثمود[1]: وكانوا يسكنون شمال الحجاز (مدائن صالح) وأرسل إليهم نبيهم (صالح) عليه السلام. وقد أهلكوا بالصيحة الطاغية المزلزلة.

جـ ـ وأما أصحاب الرس: فكانوا يسكنون وسط جزيرة العرب، وكانوا أصحاب بئر عظيمة ووادي الرس معروف بوادي الرمة. قال زهير بن أبي سلمى:

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للفم

وعرفوا بأصحاب الرس كما عرف الذين حفروا الأخدود وهلكوا بسببه (أصحاب الأخدود)، ويذكر المفسرون أن نبيهم كان يسمى (حنظلة بن صفوان). قيل: خسف بهم، وقيل: أخذتهم الزلزلة بعد أن قتلوا نبيهم، وقيل: سدوا عليه باب البئر.

والقرون: إما أهل القرون، أو أطلق على الأمة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦]، وقول الرسول ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم»[2]، وقد جاءت أمم بين ذلك من لدن نوح عليه السلام إلى آخر الأقوام المذكورين.

والتعبير بكثرة القرون يدل على امتدادهم عبر التاريخ. وكلهم لاقى مصير المكذبين من التدمير والهلاك (وكلاً تبرّنا تتبيراً)، وقد سيقت لهم الأمثال وهو الأشباه والنظائر في الخير والشر.

---

(١) في قراءة الجمهور (ثموداً) بالتنوين باعتبار اسم الأب الذي ينسبون إليه فينصرف، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب بغير تنوين باعتبار الأمة أو القبيلة فهي ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث ويرجح ابن عاشور: أن يكون تنوين (ثموداً) للمزاوجة مع (عاداً) كما قال تعالى: ﴿سَلَاسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤] حيث زاوج تنوين (سلاسلاً) بتنوين أغلالاً وسعيراً. التحرير: ١٩/ ٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»: ٤/ ١٨٩. وفي رواية «خير الناس قرني...».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

رابعاً: القرية التي أمطرت مطر السوء هي قرية قوم لوط والعبرة بهم أبلغ لأنهم يمرون عليها صباحاً ومساء في رحلة الصيف إلى بلاد الشام للتجارة ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

حيث كانت طرق القوافل تمر قرب بحيرة لوط (البحر الميت) وكانت بقايا سدوم بارزة للمسافرين. أما القرى الأربعة المحيطة بها فلم يبق لها أثر.

ولأن القوم كانوا لا يؤمنون بالبعث بعد الموت فلم يعتبروا بمصير قوم لوط، لأنهم ـ وكما هو الحال الآن ـ ينسبون هذه الكوارث إلى الطبيعة أو إلى غير ذلك. ولو أنهم آمنوا بالبعث والنشور، لفكروا في الأسباب التي أدت إلى هلاك القوم، ولفكروا أيضاً فيما ينتظرهم بعد البعث والنشور، «إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس لطلب النجاة. وهؤلاء المشركون لما نشؤوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل لم يعنوا إلا بأسباب ووسائل العاجلة»[1].

لقد ورد ذكر مصائر هؤلاء الأقوام الذين يحيطون بقريش وكانت أخبارهم معلومة لديهم لتحذيرهم من المصير والمآل الذي آلوا إليه.

وفي نفس الوقت تسلية لرسول الله ﷺ الذي لاقى العنت من المشركين بتفننهم في المطالب وإثارة الشبهات حوله وحول معجزته.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

والمناسبة واضحة بين محور السورة (المعجزة والرسول) وبين هذا المقطع مما لا مزيد لالقاء الضوء عليه.

فما كان لرسول الله ﷺ علم بدقائق أحوال تلك الأمم وتفاصيل أخبارهم

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩/ ٣١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلا عن طريق الوحي إليه، فاشتمال القرآن الكريم على مثل هذه الأخبار الغيبية دليل على مصدر القرآن وأنه منزل من الذي أحاط بكل شيء علماً.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

* * *

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقطع الثامن

لجوء العاجز عن الحجة إلى الاستهزاء والسخرية

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٤].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

ـ عودة من القوم إلى الطعن في الرسول، وهذه المرة لم يجدوا ما يثيرون حوله من شبهات فلجؤوا إلى السخرية والاستهزاء، وهو دليل إفلاس القوم وفراغهم الفكري والنفسي.

ـ والحكمة في تأخير ذكر استهزائهم برسول الله ﷺ ـ والله أعلم ـ تكريم لرسول الله ﷺ فكأنه قيل: إذا كان القوم قد تطاولوا على الذات الإلهية فاتخذوا معه شركاء واعترضوا على طريقة نزول القرآن.. فلا غرابة أن يستهزئوا برسول الله ﷺ، وقد انعكست عندهم القيم والمفاهيم فهم كالأنعام.. وفي كل ذلك تطييب لقلب رسول الله ﷺ قبل ذكر استهزائهم به وتوقحهم عليه.

المعنى الإجمالي للمقطع:

لقد تفنن المشركون في المطالب وتعنتوا في إثارة الشبهات والاتهامات، فلما لم يروا جدوى من إثارة الأباطيل حول المعجزة، ولم يصلوا إلى غايتهم في

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثني رسول الله ﷺ عن المضي قدماً في تبليغ دعوة ربه، لجؤوا إلى السخرية والاستهزاء وهو علامة إفلاسهم الفكري، فلو وجدوا ملجأ أو مسرى في إثارة شبهة لما ادَّخروا وسعاً في ذلك.

لقد ألقى الله الحق على باطلهم فأزهقه ودحضه، وما أتوا بمثل إلا جاء الله بالحق وأحسن تفسيراً، فلم تبق لهم أرض يقفون عليها للحفاظ على كيانهم وزعاماتهم ومصالحهم، فليس أمامهم إلا الاستهزاء والتحقير والحط من شأن الرسول، ليصرفوا الناس عنه وعن الاستماع إلى دعوته ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ ـ ٥٢].

وكأني برسول الله ﷺ يخرج من داره أو من مقر اجتماع بأصحابه وهو يعلّمهم القرآن الكريم، ويشرح لهم سنن الله في الدعوات والأقوام، ويمر بالقوم وهم في حلقهم حول الكعبة أو في مجالس لهوهم في الأسواق، فيشير بعضهم إلى رسول الله ﷺ ألا ترون إلى هذا الذي يزعم أنه رسول يكلَّم من السماء؟! ويضرب بعضهم كفاً بكف وهو يقهقه إنه يدعو إلى عبادة إلٰه واحد، ويستغرب الآخر ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة صٓ: ٥].

ويقول الثالث: وأين يذهب باللات والعزى ومناة، أين ذهب عقل هذا الرجل أما كان من أعقل الناس قبل دعوته هذه، لا بد أن الآلهة مسته بشيء في عقله.

ثم يرفع لغطهم وقهقهاتهم «إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها» كما أضل أبا بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وهؤلاء الشباب والعبيد والإماء.

يا قوم لا تضيعوا تقاليد آبائكم ولا تفرطوا في الولاء لآلهتكم، فقد ورثنا هذا المجد وهذا العزّ كابراً عن كابر. فلا تضيعوا آثارهم...

«لقد كان محمد ﷺ ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته، فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته وهو من ذروة بني هاشم وهم ذروة قريش، وكان عندهم ذا مكانة من خُلقه وهو الملقب بينهم بالأمين. ولقد ارتضوا حكومته بينهم في

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وضع الحجر الأسود قبل البعثة بزمن طويل، ويوم دعاهم على الصفا فسألهم أيصدقونه لو أخبرهم أن خيلاً بسفح هذا الجبل قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم.

ولكنهم بعد البعثة وبعد أن جاءهم بهذا القرآن الكريم، راحوا يهزؤن به ويقولون: «أهذا الذي بعث الله رسولاً»، وهي قولة ساخرة مستنكرة أكان ذلك عن اقتناع فيهم بأن شخصه الكريم يستحق هذه السخرية؟ وأن ما جاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء؟ كلا، إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ومن أثر هذا القرآن الذي لا يقاوم، وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية، وتحررهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع»[1].

وهذا شأن الضالين المفسدين في كل عصر فقد قال فرعون من قبلهم عن نفسه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. رافعاً من قيمته وقدره، وقال عن موسى حاطاً من شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦]. وقال أيضاً: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

وهؤلاء يقولون عن رسول الله ﷺ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾ [الفرقان: ٤٢]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣١].

ولكن عندما تنكشف الحقائق وتزال الحجب، يظهر الهادي من الضال ويتميز المصلح من المفسد.

﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٤٢]. إن هؤلاء المشركين ليس لديهم أثارة من العلم المنقول يتبعونه في ضلالهم، وليس

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٦٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لديهم أسلوب من التفكير السليم يوصلهم إلى ما يعتقدونه، وليست عندهم حجة أو برهان من المحسوس يستندون إليها، إنهم يرددون كالبهائم شعارات جوفاء سمعوها من أسلافهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۖ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠ ـ ١٧١].

إن من يترك الموازين والمعايير الفكرية والعقلية، ويترك المعايير المستنبطة من العلوم المتوارثة عن الديانات السابقة، ويترك الأعراف التي تعارفها العقلاء من الناس في الاحتكام إليها. يترك كل ذلك، ويلجأ إلى هواه، فكيف السبيل للتفاهم معه وشده إلى مقاييس وموازين في المناقشة، وإقامة الحجة والبرهان عليه. ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]. أليس هؤلاء المخلوقات تكون في هذه الحالة أشبه بالدواب التي لا تعرف إلا ردود أفعال وانعكاسات للغرائز تجاه ما تحس به؟ بل هؤلاء الذين أعطوا ملكة العقل والتفكير ثم عطّلوها واتبعوا أهواءهم ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] إن البهائم لم تستخدم ما وهبها الله في غير ما خلقت له، والبهيمة تقدر من أحسن إليها فلا تؤذيه، والبهيمة لم تتخذ مع الله إلـهاً آخر بل تسبح الله وتحمده ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إنه تحقير لهؤلاء الذين تركوا ما ميزهم الله به عن سائر المخلوقات، واستهزاء بحالهم أيما استهزاء. وهو استهزاء مستند إلى سبب، والعلة والحكمة واضحة، واستحقاقهم لهذا التحقير والاستهزاء واضح مسلَّم به. خلاف استهزائهم الجائر الوقح برسول الله ﷺ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

لقد اشتمل المقطع على دفع شبهة وطعن في رسول الله ﷺ حيث استخدم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المشركون سلاح السخرية والاستهزاء للحط من شأن رسول الله ﷺ، فرد الله كيدهم في نحرهم، وبيّن أنهم محل الاستهزاء المستحقون له لانحطاطهم إلى دركات الجهل والبهائم العجماوات، وهذا الدفاع من صلب محور السورة، حيث لا يبرز صدقه ولا تظهر مكانته إلا إذا أزيح ركام الباطل وقتم الأراجيف عن شخصيته النبيلة الطاهرة.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع التاسع

من دلائل النبوة، الحقائق الكونية التي وردت على لسان الأمي

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٥٥].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

بعد الحكم على القوم بأن لا سبيل لإفهامهم ولا رجاء في اهتدائهم عن طريق المحاكمات العقلية فقد اتبعوا أهواءهم وجعلوها إلـٰههم فنزلوا إلى دركة البهائم بل هم أضل.

جاء في هذا المقطع جملة من الظواهر الكونية المحسوسة، لعلها تثير فيهم التأمل والتدبر، فإن هذه الظواهر تدل على النظام في الكون، والإرادة المدبرة لشؤونه، ولايمكن أن تكون صدفة عمياء أوجدت هذا النظام الكوني الدقيق الذي يحقق مصالح المخلوقات في هذا الكون... إن تدبر المشاهد المحسوسة في

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الكون سبيل للتفكير إلى ما وراء المحسوسات من عالم الغيب، فإن المحسوسات طريق إلى المعقولات، وهي طريق للإيمان بعالم الغيب.

وسوق الأدلة من المشاهد الكونية موافق للتقسيم السابق «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون» فالسماع للمنقول، لكي يتدبروا ما أنزل من الآيات القرآنية. والعقل للآيات الكونية المشاهدة. فإن لم ينتفعوا بالآيات المسموعة، ولم يفهموا الآيات المرئية المشاهدة فلا فائدة في حواسهم، فالأنعام لها حواس أيضاً.

وهذا المقطع له علاقة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

تمهيد بين يدي البحث في الآيات الكونية:

كثر في عصرنا هذا ما يقال عنه: (تفسير الآيات الكونية) أو (الإعجاز العلمي) ولقد انزلقت أقدام كثير من الباحثين نتيجة اندفاعهم وراء المكتشفات الحديثة والنظريات التي ذكرها علماء الفلك والطبيعة...

وحاولوا لَيَّ أعناق النصوص الكريمة ليجعلوا تلك النظريات تفسيراً لها. وفي هذا الأمر من الخطورة الشيء الكثير، لذا كان لزاماً علينا أن نبين المنهج الوسط في تفسير هذه الآيات الكريمة ونضع ضوابط علمية تعصم الباحثين من الانزلاق، وتحميل النصوص ما لا تحتمل، وكذلك نجنبهم من ردود الأفعال التي انتابت بعضهم، فأداروا ظهورهم للإشارات الدقيقة للحقائق التي أودعها الله في كونه (الذي يعلم السر في السماوات والأرض) حيث ذهب بعض المعاصرين إلى شن حملة شعواء على القائلين بالإعجاز العلمي الذين ذهبوا إلى تفسير تلك الآيات على ضوء الحقائق العلمية التي أماط عنها اللثام البحث العلمي والجهد البشري. فمن هذه الضوابط:

أولاً ـ أن لا نخرج القرآن الكريم عن مهمته الأساسية، أنه كتاب هداية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للبشرية، ولا نعتقد فيه أن يقدم لنا تفسيراً تفصيلياً للظواهر الكونية أو الطبيعية التي نشاهدها.

والإشارات التي جاءت في القرآن الكريم تلفت النظر إلى حقيقة كونية في الفلك أو في البحار أو في الجبال أو في النبات أو الحيوان أو الإنسان.. هذه الإشارت منسجمة مع المهمة الأساسية للقرآن الكريم وهي إخراج الإنسان من متاهات الجهالة وظلمة الشرك إلى نور التوحيد وإدراك حكمة الله تعالى في مخلوقاته، وأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له في ملكه وبيان قدرته على الإبداع والتدبير وإليه المآل والمصير. ولو تتبعنا الآيات الكونية لوجدناها:

إما أن تتقدم بالدعوة إلى التوحيد ثم تساق الآيات دليلاً على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٤].

ـ وإما أن تُعقَّب الآيات الكونية بتوجيه سؤال عن واضع هذه الأسرار وهذه الأنظمة في الكون هل يوجد إله غير الله صنع ذلك.

كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٥].

ـ أو لبيان نعم الله على مخلوقاته عامة، وتسخير هذه المخلوقات للإنسان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليدرك الإنسان قيمة هذه النعم التي تحيط به من كل جانب، فيتوجه بالشكر والعبادة إلى مسديها جلَّ جلاله، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

وغيرها من الأساليب القرآنية التي عرضت الحقائق الكونية والظواهر الطبيعية، وكلها تهدف إلى تعبيد الإنسان للخالق الديان، أو لبيان عظيم قدرته سبحانه وتعالى في رعاية مصالح عباده كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٥-٧].

ثانياً- أن يجعل الباحث الحقائق العلمية المسلّم بها بين أهل الاختصاص مجال البحث والتفسير.

من المعلوم أن المكتشفات العلمية تمر بمراحل، فأول ما تلفت الظاهرة النظر، يفترض الباحث لها احتمالات، فإذا غلب على ظنه تفسير معين لها ركز عليها التجربة أو الدراسة فهي في هذه المرحلة فرضية.

فإذا استطاع أن يقيم عليها البراهين والأدلة انتقلت إلى مرحلة النظرية، فإذا اضطردت النتائج ولم تختلف النتيجة من زمان إلى زمان، وفي مكان عن مكان آخر، وعلى يد الباحثين جميعاً أدت إلى نتيجة واحدة، صارت حقيقة علمية. فإذا أردنا أن نفسر آية كونية، علينا أن نرجع إلى الحقائق العلمية في هذا المجال، فإن وجدنا إحداها يمكن أن تكون تفسيراً للآية، بحيث تعطي الحقيقة العلمية بعداً إضافياً للفهم المتبادر من الآية، فعندئذٍ يمكن أن نجعل الحقيقة العلمية من

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الوسائل التي تعيننا على فهم الآية.

وهناك حقائق كثيرة تعطي أبعاداً تفسيرية للآيات الكريمة كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فحيث وجد الماء كانت الحياة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

حيث ذكرت أطوار النشأة الجنينية السبعة، ولم يدركها العلم الحديث إلا متأخراً.

إن النظريات العلمية قابلة للإبطال وتراجع أصحابها عنها، وربط تفسير الآيات القرآنية بتلك النظريات، يؤدي إلى اضطراب أذهان الناس وتزعزع ثقتهم بالقرآن الكريم في حال رجوع أصحابها عنها أو ظهور بطلانها. فعلى الباحث عدم التعريج على تلك النظريات مهما بلغت من الشهرة والذيوع ما دام هناك احتمال ـ ولو ضئيل ـ ببطلانها.

ثالثاً ـ عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة العلمية الواحدة:

إن من إعجاز القرآن الكريم أسلوبه المرن الذي يسع فهوم الأجيال المتعاقبة، ولا يستطيع جيل من الأجيال أن يحيط بدلالات هذا الأسلوب ـ وخاصة في الآيات الكونية والسنن الاجتماعية ـ أو باختصار فيما عدا آيات التشريع ـ وقد تكتشف حقيقة علمية في عصرٍ من العصور، ويظن الباحثون أنها المقصود بالآية ويحصر دلالة الآية عليها، فهذا أيضاً منهج خاطئ يجب تجنبه، لقد حصر كثير من المعاصرين دلالة قوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] في البصمات التي اكتشفت عام ١٨٨٠م على يد أحد العلماء الغربيين وقالوا: إنها المراد بالآية. ونحن نقول: إن هذا الاكتشاف العلمي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أعطى بعداً جديداً لدلالة الآية، ولكن لا ينبغي الاقتصار عليه فقد يأتي يوم يكتشف شيء أدق وأعمق في البنان ويصبح الاكتشاف السابق فهماً سطحياً للآية الكريمة، كما قلنا عن فهم السابقين للآية قبل اكتشاف البصمات.

وكذلك ذهب بعض العلماء في فهم قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦] إلى أن المراد بالظلمات الثلاث الأغشية الجلدية الثلاثة: البطن، والرحم، والمشيمة. إلا أن الطب الحديث يعطي تفسيراً آخر وأنها أغشية ثلاث داخل المشيمة هي:

غشاء السلى (الأمنيون)، الغشاء المشيمي (الكوريون)، الغشاء الساقط[1].

وعلى الرغم من وجاهة أقوال الأطباء في ذلك وهو قول متخصصين في هذا المجال، وعلى الرغم من أن قولهم هذا أعطى فهماً أعمق وأحدث للآية الكريمة. لا ينبغي حصر دلالة الآية على قولهم هذا فقد يحدث أن تكتشف ظلمات ثلاث غير ما ذكروه.

إن القرآن الكريم معجزة رسول الله ﷺ الخالدة، وتقوم الحجة به على الأجيال المتعاقبة إلى يوم القيامة واستكناه دلالته يعني تفريغه من إقامة الحجة على الأجيال اللاحقة، وهذا يتعارض مع الحكمة من تنزيله وإعجازه.

رابعاً ـ استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية:

لقد خلق الله عزَّ وجلّ هذا الكون وخلق فيه سنناً كونية مطردة، وجعل كثيراً من هذه السنن خفية علينا معشر البشر، وأمرنا بالنظر والتدبر والاعتبار بما خلق في السماوات والأرض ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ... ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

---

(١) انظر كتاب (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) للدكتور محمد علي البار، ص٣٦٥ ـ ٣٧٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال عن القرآن الكريم: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

وجاءت الإشارات إلى أسرار هذا الكون في كثير من الآيات الكريمة مما يتعلق بسنن الله فيه التي سخرها لتحقيق مصالح العباد، أو أداء دور وظيفي لسكان هذه الأرض أو غيرهم.

ومن المستحيل أن يخلق الله هذه السنن على شاكلة معينة، ثم يخبر عنها بشكل مختلف متناقض مع واقع السنن.

إن الحقائق المبثوثة في الكون، والحقائق التي أشار إليها القرآن الكريم تخرج من مشكاة واحدة ومن مصدر واحد، فيستحيل التناقض بينهما، وإن توهم بعض الباحثين التناقض بين حقيقة علمية وحقيقة قرآنية فسببه أحد أمرين:

ـ إما أن يكون ما ظنه حقيقة علمية لم يكن في واقع الأمر سوى نظرية ذاعت وانتشرت فظن الناس أنها حقيقة علمية، ثم ظهر بطلانها على ضوء التقدم العلمي، كما كان الحال مع نظرية لابلانس الإفرنسي، الذي قال: إن الشمس مركز الكون وكل الأفلاك تدور حولها وهي ثابتة لا تجري، وكانت النظريات الفلكية تدرس على هذا الأساس أكثر من أربعة قرون، ثم ظهر بطلانها بعد اكتشاف المراصد الفلكية الكبيرة، وإذا بالمجموعة الشمسية ليست إلا إحدى المجموعات الصغيرة في مجرتنا وأنها تجري بسرعة (٢٠) ألف ميل في الساعة تجاه نجم الجبار.

ـ وإما أن يكون فهمنا للآية غير دقيق وذلك بحصر دلالة الآية على وجه واحد من وجوه الدلالات المتعددة، وترك ما سواها وإلزام الجميع بهذا الفهم المعين والوجه المحدد. ويكون الأمر، أن هذا الفهم للآية يتعارض مع الحقيقة العلمية. كما فهم بعض الناس من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف: ٨٦]، أن الشمس تغرب في بحر أو بحيرة معينة حاولوا تحديد موقعها على الأرض...

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

علماً أن الآية الكريمة تسند الرؤية إلى ذي القرنين (وجدها تغرب) أي تبدو لعين الرائي. وهذا يحدث لكل من يقف على ساحل البحر أو البحيرة الكبيرة وقت الغروب وينظر كيف أن قرص الشمس يغيب وراء الأفق وكأنه يغرب في تلك البحيرة. وهذا من خداع البصر للإنسان.

وكذلك ما فهمه بعض المفسرين من أوصاف الأرض ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ...﴾ [الرعد: ٣].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ...﴾ [النمل: ٦١].

فقالوا: إن الأرض مبسوطة ثابتة. وأغفلوا دلالات الكلمات الأخرى.

وهي التي توافقها المكتشفات الحديثة في واقع الأرض.

لقد جاء الأسلوب القرآني في مثل هذه الآيات مرناً يقبل وجوها في التأويل. وعلى الباحث أن يرجع إلى دلالات الكلمات في المعاجم اللغوية وإلى الوجوه المختلفة لاستعمالاتها: في الحقيقة والمجاز وظلال الكلمات في السياق، واستعمالاتها الاصطلاحية في الشرع أو عند أهل الاختصاص من أهل العلوم والفنون.

فإذا وجد الباحث أن معنى من هذه المعاني أو وجهاً في الاستعمال تؤيده الحقيقة العلمية يمكنه أن يرجّح هذا المعنى أو هذا الوجه في الاستعمال على غيره، بدلالة الحقيقة العلمية، من غير أن يبطل الدلالات الأخرى للكلمة ومن غير أن يحصر الدلالة على هذه الحقيقة العلمية الواحدة.

إن من أسرار خلود الأسلوب القرآني على مَرِّ التاريخ وتعاقب الأجيال وتبدل الثقافات هو هذه المرونة والمطاوعة في التأويل.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خامساً ـ القرآن الكريم خطاب موجه إلى الأجيال ومعجزة خالدة مستمرة إلى يوم القيامة ولا يستطيع جيل ـ مهما أوتي من العلم ـ أن يحيط بأسراره ويكتنه خفاياه، فخير مفسر للقرآن هو الزمن.

وعلى الباحث أن يتبع المنهج القرآني في المعرفة ويدخل البيوت من أبوابها.

١ ـ إن من يحاول الوصول إلى النتائج من غير أن يتبع الأسباب ويستخدمها، كمن يأتي البيت من ظهره لا من بابه.

٢ ـ إن من يريد أن يقطف الثمرة ويصل إلى الغاية التي يريدها، من غير أن يقدم جهداً، يصطدم بسنن الله الكونية ويفشل في الوصول إلى الغاية.

٣ ـ لقد وضع الله في هذا الكون أسباباً تؤدي إلى نتائج، وله أن يخرق هذه الأسباب لحكمة يريدها إما تأييداً لأحد عباده الصالحين أو انتقاماً من بعض المتمردين على حكم الله وأمره.

أشارت بعض الآيات الكريمة إلى هذه القواعد والنواميس:

أ ـ فعند ما سأل بعض أصحاب رسول الله ﷺ عن ظاهرة فلكية «لِمَ يبدو الهلال صغيراً في أول الشهر ثم يكتمل فيصبح بدراً في وسطه ثم يعود كالعرجون القديم في آخره؟».

لم يأتِ الجواب القرآني على مقتضى سؤالهم، وإنما ذكر الحكمة من خلق الأهلة ونبههم: أن سؤالهم عن ظاهرة فلكية، وليسوا أهل علم الفلك، لا يمكنهم استيعاب ذلك. فهم في هذه الحالة كمن يأتي البيت من ظهره لا من بابه ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما حدثت قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(١).

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه: ١/ ٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[1]. إننا إذا أردنا أن نصل إلى الحقائق العلمية علينا أن نبذل أسباب تحصيل تلك العلوم، ولا ننتظر أن يقدم لنا القرآن الكريم آخر النتائج التي توصل إليها البشر في مضمار الحقائق الكونية، وليس من البر أن نرفض ما حققه غيرنا وعجزنا عنه.

ب ـ نتائج الحقائق العلمية في الكون منوطة بالجهد البشري، وبالأسباب المناسبة، فمن لم يبذل جهداً ولم يتبع سبيل الأسباب المناسبة يذهب جهده سدى، وإلى هذا أشارت الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

لا علاقة لعقيدة الباحث في الكون في الوصول إلى النتائج أو عدم الوصول إليها، فما دام يبذل جهداً ويتبع الأسباب المناسبة لبحثه فسيحقق النتيجة: فكل من أوقد ناراً تحت القدر وبداخله ماء أو طبخ وصل إلى تسخين ما بداخله، وكل من استنبت نباتات في مناخ مناسب وتعهدها بالرعاية حصل على الزرع، وكل من لقح وأبّر حصل على الثمار، وكل ذلك حسب سنن الله الموضوعة في هذا الكون.

ولكن الفرق بين الباحث المؤمن والباحث الكافر، أن المؤمن يصل إلى النتيجة المرجوة في الدنيا فيسخّر ما حققه لمصالحه، ويكتب له أجر هذا الجهد يوم القيامة، فالخير الدنيوي موصول بالأجر الأخروي وأجر الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

أما الكافر فإن وصل إلى النتائج في الدنيا يسخرها لمصالحه ويستفيد رفاهاً وقوة ومكانة وسمعة في الدنيا أما في الآخرة فمصيره إلى النار وهو مذموم مدحور.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم: ١/ ٤١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لأن بطاقة قبول الأعمال الصالحة في الآخرة هي كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أما في الدنيا فيشملهم الحكم الرباني ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وبعد هذا التمهيد الطويل في منهج البحث في الآيات الكونية لنعد إلى سياق السورة المقطع التاسع من خلال جولات في الكون.

الجولة الأولى في المشاهد الكونية:

الظل والشمس:

﴿ أَلَمْ تَرَ (١) إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦].

في الآيتين الكريمتين احتمالات للفهم بعضها متبادر إلى الذهن ويفهمها العامة، وبعضها لا يدركها إلا أهل الاختصاص حسب تقدمهم العلمي. كما هو الشأن في كثير من الآيات الكونية والظواهر والحقائق العلمية، التي أشار إليها القرآن، فهناك فهم متبادر إلى الذهن ـ فهم العامة له ـ وهناك فهم أهل الاختصاص. كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٤].

---

(١) ذهب الزجَّاج إلى حمل الرؤية هنا على رؤية القلب لأن تأثير قدرة الله تعالى في تمديد الظل غير مرئي بل معلوم، انظر معاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٧٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

ـ والفهم المتبادر للآيتين الكريمتين:

أ ـ إذا جعل الكلام في حقيقته، يكون المعنى أن الله مد الظل إلى جهة الغروب وذلك عند طلوع الشمس، ثم كلّما ارتفعت الشمس تقلص الظل إلى أن يأتي وقت الزوال، فإذا كانت الشمس في كبد السماء تكاد لا ترى للشيء القائم ظلاً وهي حالة السكون ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]. فالشمس دليل على امتداد الظل وتقبضه، ويحدث هذا الامتداد مرة ثانية وبالتدريج إلى جهة المشرق عند نزول الشمس إلى الغروب، ويتم كل ذلك من الامتداد والقبض بقدرة الخالق جلَّ جلاله وبحكمته العظيمة، وفي هذا التدرج تحقيق مصالح العباد من حياة الإنسان والحيوان والنبات.

ب ـ أما إذا جعل الكلام في مجازه فيكون المعنى: إن حال ضلال الناس كحال امتداد الظل فلما بدأ نزول القرآن الكريم منجماً بالتدريج كانت أنواره تؤثر في حال الناس بالتدريج فينحسر ظل الضلال والشرك بالتدريج حتى ينعدم الفيء. «فنظم الآية بما تشمل عليه من التمثيل أفاد تمثيل هيئة تنزيل القرآن منجماً بهيئة الظل مدرجاً ولو شاء لجعله ساكناً»[(١)].

وفي كلا الاحتمالين إدراك لقدرة الله تعالى في هذه الظاهرة الكونية التي مدار الحياة البشرية عليها ولو لم يكن لاستحالت الحياة على هذه الكرة الأرضية[(٢)]

فعلى العاقل أن يتدبر الظاهرة ليصل من خلالها إلى قدرة الحكيم العليم، ورحمته بعباده في إنزال الكتاب وإرسال الرسول.

---

(١) انظر تفصيل هذين الاحتمالين في التحرير والتنوير: ١٩/ ٣٩.

(٢) يقول ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير: ١٩/ ٤١: أي لو شاء لجعل الأرض ثابتة في سمت واحد تجاه أشعة الشمس فلا يختلف مقدار ظل الأجسام التي على الأرض وتلزم ظلالها حالة واحدة فتنعدم فوائد عظيمة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويعقب هذه الظاهرة ـ القبض اليسير ـ أن يحدث الليل اللباس الذي يستر كل شيء ويغطيه بعد قبض الشمس، ويكون نوم الناس انقطاعاً عن العمل والحياة ـ فهو كالموت المؤقت ـ ثم إذا بزغت الشمس من جديد وطلع نور النهار الجديد كان الانتشار للمشي في مناكب الأرض فكأنهم بعثوا من القبور (والنهار نشوراً).

ومثل هذه الآيات وعلى هذا الفهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٠ـ٧٣].

«وفي مد الظل وقبضه نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار، بفوائد شعاع الشمس وفوائد الفيء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظل، والفريق الذي كان في الظل ينتفع بانقباضه»[1].

ما تقدم محل العبرة والمنة اللتين تتناولهما عقول الناس على اختلاف مداركهم. أما أهل الاختصاص من الفلكيين ومن الذين اطلعوا على كلامهم فيقولون:

ـ إن مد الظل وقبضه وعدم سكونه دلالة على نظام المجموعة الشمسية، فإن في دوران الأرض حول نفسها مقابل الشمس يحدث امتداد الظل في الجانب المعاكس الذي يبدأ وقوع نور الشمس عليه، ثم كلما دارت الأرض امتد النور لتتقلص ظلال الأجسام على الأرض. ومن الجانب الآخر ليمتد الظل من جديد للأجسام، وحيثما كانت الشمس عمودية على جسم فلا ظل له.

فالشمس دليل[2]. على هذه الحركة الأرضية ـ وإن كنا نرى وكأن الشمس

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩/ ٤٣.

(٢) في التعبير بـ(ثم) في الموضعين (ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) و(ثم قبضناه إلينا قبضاً=

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هي التي تدور حول الأرض وهي رؤية ظاهرية لا حقيقية، كالمسافر الذي يسافر في قطار يرى وكأن أعمدة الهاتف أو الجبال هي التي تسير إلى الوراء وهو ثابت في مكانه ـ إنه خداع البصر[1].

وكذلك ونحن على الكرة الأرضية التي تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة نظن أن الشمس هي التي تسير ونحن ثابتون.

والذي وضع هذا النظام الدقيق للمجموعة الشمسية ـ كما هو الشأن في نظام الكون كله ـ أراد بهذا النظام أن يكون سبباً في وجود الحياة على هذه الكرة الأرضية، ولو شاء لجعل الظل ساكناً كما هو الحال في ظل القمر، أو غيره من الكواكب التي تقابل الشمس بوجه واحد فالوجه المقابل يحترق من الحر، والوجه الآخر يتجمد من البرد. فنظام دوران الأرض ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]. هو السبب في وجود الليل والنهار وامتداد الظل على طرف وتقلصه من طرف.

ثم القبض اليسير في اعتدال الكرة الأرضية عن محورها المائل بدرجة قدرها الفلكيون بـ(٢٣,٥). لينشأ اختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار طولاً

= يسيراً) في كلا الموضعين تدل كلمة (ثم) على التراخي الرتبي، لأن مضمون جملة (جعلنا الشمس عليه دليلاً) أبعد اعتباراً، أي أرفع في التأثير أو في الوجود، فإن وجود الشمس هو علة وجود الظل للأجسام التي على الأرض. والسبب أرفع رتبة من المسبَّب وكذلك مضمون جملة (قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) أهم في الاعتبار بمضمونها من مضمون (جعلنا الشمس عليه دليلاً)، إذ في قبض الظل دلالة من دلالة الشمس هي عكس دلالتها على امتداده، فكانت أعجب إذ هي ضد للعمل الأول، وصدور الضدين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر. التحرير والتنوير بتصرف: ١٩/ ٤٢.

(١) هذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: ٣٨]، فإن الشمس أيضاً لها حركتان حركة تدور حول نفسها، والمجموعة الشمسية تجري بسرعة (٢٠) ألف ميل في الساعة نحو نجم الجبار. فدورة الأرض حول نفسها يتولد منه الليل والنهار، وحركة الأرض حول الشمس (٦٥) ألف ميل في الساعة يتولد منها الفصول الأربعة، أما حركة المجموعة الشمسية نحو نجم الجبار فلم يصل العلم إلى معرفة ما يترتب عليه ولا نشك في وجود وظيفة لذلك. والله أعلم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقصراً في الشتاء والصيف، وتساويهما في الخريف والربيع . . .

الجولة الثانية في الكون ـ الليل والنوم والنهار:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

وهذه الظواهر الثلاث آثار للظل والشمس فإذا امتد الظل فغطى جانباً من الكرة الأرضية جاء الليل فغشى كل شيء ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل: ١] والساعة البيولوجية لدى الإنسان معيّرة بحيث يدب الفتور والسكون إلى أنحاء الجسم فتهدأ الأعصاب وترتخي العضلات ويتبلد الإحساس . . .

فينقطع الإنسان عن النشاط. وهو الموت الأصغر الذي يقول عنه جلَّ جلاله ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]. ونوم الليل يحقق الراحة للجسم أكثر من النوم في أي وقت آخر. وهو من التكامل في نظام الكون الذي تشكل حياة الإنسان ونظام عمل جسمه جزءاً منه ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ٨ ـ ١١].

ثم عندما يأتي نور الشمس من جديد إلى البقعة التي امتد عليها الظلام ويتنفس الصبح ثم يسفر ثم تطلع الشمس ويعم الضياء، تدب الحياة مرة أخرى وكأن الناس قد بعثوا من قبورهم وكان النشور ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧]، كان من دعاء رسول الله ﷺ بعد قيامه من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[1].

فهذا النظام الكوني الدقيق تتكامل معه العادات والطبائع التي أودعها الله في النفس الإنسانية، فلا تصادم بين النظامين، بل انسجام وتآلف وتلاؤم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام: ٧/ ١٤٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فالسكن في الليل للتخلص من كدح النهار ولاستعادة النشاط الجسمي للعودة مرة أخرى للسعي على الرزق وابتغاء فضل الله في النهار التالي.

فلولا هذا التناوب بين الليل والنهار، لما استقامت الحياة على الكرة الأرضية، ولما قامت حضارات وعمران، فسبحان الله القائل في كتابه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

الجولة الثالثة ـ الرياح والمطر والماء:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ(١) بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا(٢) ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩].

إن ظهور السحب في الأفق ووجود الرياح الرطبة التي تلامس الوجه، تُشعر

---

(١) الرياح بصيغة الجمع تأتي في الغالب للرحمة وللمطر، وتأتي الريح مفردة في الغالب للعذاب.. قال الرماني: جمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة ـ لواقح: الجنوب والصبا والشمال، وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة ولا تلقح وهي الدبور. انظر المحرر الوجيز: ١١/ ٤٧.

(٢) الحكمة في اختيار هذه الأوصاف والمهمات أو الوظائف للماء في هذه الآية ماء طهوراً، لنحي به بلدة ميتاً، ونسقيه، بينما في آيات أخرى تأتي أوصاف ووظائف أخرى؟! هنا الخطاب موجه للكفار وتذكير لهم بنعمة عظيمة لا يستطيعون إنكارها وهي نعمة الماء فهو طهور للأدران من الأبدان والملابس والأشياء المادية، وإذا حرص الإنسان على طهارة بدنه وملابسه والمكان الذي يعيش فيه، عليه أن يفكر بتطهير عالمه الباطني ولا يكون ذلك إلا بالقرآن ـ الوحي الإلهي ـ وكما أن الماء يطهر ويحيي البلد الميت فكذلك الوحي يطهر النفوس ويحيي القلوب والنفوس الكافرة ـ الميتة ـ ومن وظائف الماء سقيا المواشي والناس، وكذلك من وظائف الوحي إرواء غليل العطشى التائهين اللاهثين...

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أصحاب الزراعة والماشية والمهتمين بشؤون المطر أن هذه الرياح تتلوها الأمطار فيستبشرون بها.

والحقيقة أن دور الرياح في تكون السحب وسوقها والتأليف بينها والتمييز بينها إلى سحب ركامية وسحب منبسطة، دور أساسي في كل ذلك.

وقد أشارت جملة من الآيات الكريمة إلى هذه الحقائق التي لم يصل إليها الإنسان إلا بعد تطور علم الأرصاد، واستخدام الأجهزة الحديثة في تلك الدراسات.

يقول جلَّ جلاله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[الروم: ٤٨].

ويقول عزَّ من قائل: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

ويقول تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

لا تقتصر وظيفة الرياح على إنشاء السحب وإزجائها وسوقها إلى أنحاء الكرة الأرضية، بل الرياح والسحب مسخرة لأمور أكثر من ذلك، فمما أدركه العلم الحديث تسخيرها لتوزيع الحرارة على الكرة الأرضية أو القيام بدور التكييف، يقول المختصون:

«... عندما يتبخر الماء يمتص كمية من الحرارة من الجو المحيط في المناطق المدارية، فيعمل على تلطيف جوها، وعندما يتكاثف بخار الماء ويتحول إلى سحاب وأمطار في المناطق الباردة، فإنه يعيد إلى الجو نفس الطاقة الحرارية التي اكتسبها عند تبخره من قبل، وبهذا يتم رفع درجة حرارة المناطق الباردة إلى

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حد ما، وكأن هذه الدورة تكييف إلـهي مذهل جبار ولا بد من استمرارها من أجل عدالة التوزيع الحراري على سطح الأرض. . . »[1].

وظائف الماء:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩].

أ ـ الماء والحياة:

يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

من الحقائق العلمية: حيث يوجد الماء ابحث عن الحياة.

ومن المهمات التي تسند إلى المركبات الفضائية البحث عن المياه على الكواكب الأخرى.

ووصف الماء بالطهور في هذا الموضع للتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى، ولا يكون تطهير الباطن إلا بأنوار الوحي الإلـهي.

وقدم إحياء البلدة لأنها سبب في حياة الأنعام وقدم ذكر الأنعام لأن مدار معاش أهل المدر عليها.

ب ـ الماء والتوازن في الأرض:

الغلاف المائي للأرض ـ ممثلاً في كل ما يوجد على سطحها من ماء في البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات وما يتخلل فجوات الأرض وشقوقها ومنخفضاتها ـ يغطي حوالي (٧١٪) من سطح الكوكب الأرضي وبعمق يبلغ في المتوسط (٣٨٠٠) متراً. . .

---

(١) ويشبّه د. منصور حسب النبي المناطق المدارية على الأرض ـ حيث أشعة الشمس القوية ـ: بغلاّية، والمناطق الباردة كمكثف في ماكينة التكييف. انظر كتابه (الكون والإعجاز العلمي للقرآن)، ص١٩٠، ط. دار الفكر العربي.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه المساحة الهائلة من المياه لها دور كبير في تلطيف مناخ الأرض بتوزيع درجات الحرارة على سطحها توزيعاً عادلاً، ولولا هذا لأصبحت فروق درجات الحرارة على الأرض هائلة لدرجة لا تسمح بقيام الحياة.. فمقدار الماء على سطح الأرض ليس مقداراً عشوائياً ولكنه محسوب ومقدر بالعناية الإلـٰهية، يقول عزّ من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وكلمة (بقدر) لها دلالتها الدقيقة، فكمية الماء المنزلة مقدرة بما يتفق ومصالح البشر، وقد أسكن الله عزَّ وجلّ الماء في الأرض بجعل المنخفضات والتعاريج فيها حيث يتسرب الماء في باطن الأرض.. فلو كانت الأرض كرة ملساء لا تعاريج فيها من الجبال والوديان وغير ذلك، لغطاها الماء بغلاف سمكه ميلان، ولو تخيلنا أن الجليد الموجود عند قطبي الأرض قد انصهر لارتفع مستوى مياه البحار والمحيطات في العالم كله بنحو (٦٠) متراً ولغطى البحر مدناً كثيرة آهلة بالسكان[1]... إنه التقدير الإلـٰهي لضمان الحياة السعيدة الهانئة لسكان هذا الكوكب المرفّه.

جـ ـ الماء ودورته على الكرة الأرضية:

يقول عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ [2] ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١ ـ ١٢].

ـ من معجزات الإسلام ما قاله ابن عباس وابن مسعود كما نقله عنهما ابن كثير: «ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠][3].

إن هذا المعنى الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس هو الذي يثبته علماء

---

(١) انظر كتاب: الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص١٨٦.

(٢) الرجع: المطر الذي يعود ويتكرر.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٢١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكون الآن، إذ يقولون إن نسبة التبخر والأمطار في العالم لا تزيد ذرة في عام عن عام لأن الحرارة التي تأخذها الأرض سنوياً لا تزيد ولا تنقص، وإنما المطر ينزل في مكان ما أكثر من مكان، وهذا عين ما أثبته ابن مسعود وابن عباس في تفسيرهما للآية[1].

والدورة المائية في الكون تبدأ من بخار الماء المتصاعد ثم سقوطه على الأرض مرة أخرى على شكل أمطار وثلوج تأخذ مجراها إلى باطن الأرض في خزانات الأرض، وتخرج على شكل ينابيع وآبار وعيون وتجري على وجه الأرض على شكل أنهار تعود مرة أخرى إلى البحار والمحيطات لتبقى النسبة والمنسوب على حاله[2].

الجولة الرابعة ـ وقفة للتذكير والتعقيب:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٠ ـ ٥٢].

ذهب جمهور المفسرين إلى إعادة الضمير في (صرفناه) إلى الماء، ومعنى تصريف الماء جريانه في مسالك الأرض ووديانه، حيث تتحقق مصالح العباد بها بالإفادة منه من مجاري الأنهار وينابيعه من العيون والآبار، ومواطن تجمعه في البحيرات والغدران، ولكن أكثر الناس أشركوا بالله وقالوا: إنما مطرنا بنؤ كذا وكذا، ولم ينسبوا الفضل إلى الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل:

«أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بالله

---

(١) الأساس في التفسير: ٧/ ٣٨٨٦.

(٢) يقدر العلماء أن كمية بخار الماء في البحر الأبيض المتوسط يبلغ (١٠٠٠٠٠) طن في الثانية، ونتيجة لما ينزل من الأمطار وما يصب فيه من الأنهار لا ينقص منسوب مائه.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي ومؤمن بالكوكب»[1].

إنَّ الحادثة الواحدة قد يكون لها سبب حسي وسبب غيبي، وإن كل الأسباب الحسية والغيبية إنما هي بعلم الله وإرادته، فما نشاهده في المطر من وجود عوامل حسية، من الرياح والسحب والبرق والرعد وطبقات الجو وتكاثف بخار الماء كلها أسباب حسية ولكن المنشيء لها هو الله سبحانه وتعالى، وقد يوكل أمرها إلى ملائكته في ذلك ولا تنافي[2].

وذهب بعض المفسرين وهم قلة إلى إعادة الضمير في (صرفناه) إلى القرآن الكريم وإن لم يتقدم له ذكر، وهو قول منسوب إلى ابن عباس. قال ابن عطية: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في (صرفناه) للقرآن، وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر، ويعضد ذلك قوله بعد ذلك: (وجاهدهم به)[3].

وبالرجوع إلى الاستعمال القرآني لكلمة (صرّف) المشددة المسندة إلى الله تعالى والتي تأتي بمعنى التحويل من حال إلى حال أو من وجه إلى وجه آخر[4]، نجد المادة لا تكاد تذكر إلا مع القرآن الكريم أو آياته، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان: ١/ ٥٩.

(٢) في تفسير ابن كثير روى ابن أبي حاتم حديثاً مرسلاً فقال: وقال عمر مولى عقبة: كان جبريل عليه السلام في موضع فقال له النبي ﷺ: «يا جبريل إني أحب أن أعلم أمر السحاب، قال: فقال له جبريل: يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله، فقال: تأتينا صكاك مختمة، اسق بلاد كذا وكذا، كذا قطرة، وكذا وكذا، كذا قطرة». انظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٢١؛ وانظر الأساس في التفسير: ٧/ ٣٨٨٧.

(٣) انظر المحرر الوجيز: ١١/ ٤٩.

(٤) انظر مفردات الراغب، ص٤١٣؛ وعمدة الحفاظ، ص٢٩٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [سورة طه: ١١٣].

ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧].

ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

ـ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥].

ـ ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وتصريف الآيات إن أريد بالآيات القرآن الكريم فمعناه تبيينها تبيين من يقلب الشيء، وإن أريد بها العلامات فالتصريف هو إشاعتها وتقليبها وترديدها بين الناس إما بالمشاهدة وإما بالسماع ليرتدعوا[1].

وممن ذهب إلى إعادة الضمير في (صرفناه) إلى القرآن سيد قطب ـ رحمه الله ـ حيث يقول: «بعض المفسرين يرجع الضمير في (صرفناه) إلى الماء بوصفه أقرب مذكور في العبارة ولأن القرآن لم يذكر في هذا المقام، ولكننا نرجح أن يكون الضمير عائداً على القرآن، لأنه لاشك في أن قوله: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ يعني القرآن فهو لا يجاهدهم بالماء، والذي يجعل الضمير الثاني راجعاً إلى القرآن.

---

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، ص٢٩٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يجعل الأول كذلك، إنما هي التفاتة من التفاتات القرآن الكثيرة بمناسبة مضمرة ملحوظة، هذه المناسبة هنا هي إنزال الماء الطهور المحيي، التي تردّ الذهن إلى إنزال القرآن المطهر المحيي الذي تدور السورة كلها عليه»[1].

المجاهدة بالقرآن:

إن القرآن الكريم سلاح المؤمن القوي في معركته في الحياة ضد الكفر وأهله:

١ ـ فإن القرآن الكريم يخاطب الكينونة الإنسانية ويستجيش الفطرة التي فطر الله الناس عليها فلا يقف أمامه قتر الكفر وران المعاصي وقتم الإلحاد.

إن في القرآن من الحق الفطري البسيط ما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار، وأن يصد عنه تدفق التيار.

٢ ـ وإن في القرآن من الحق الناصع الذي يبهر العقول والقلوب، والنفوس البشرية مجبولة على تقديس الحق وتعظيمه مهما بلغ انحراف أصحابها وعناد ذويها، ففي لحظات الصدق مع أنفسهم ينطقون بالحق «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما هو بقول بشر» كما قال الوليد بن المغيرة في لحظة صدق مع نفسه.

٣ ـ وإن في القرآن من سحر البيان الذي يسيطر على المشاعر والعواطف ويسمو بالسامع إلى آفاق رفيعة لا يملك نفسه معها إلا الرضوخ والسجود لمنزل القرآن الكريم، ليعترف أنه تنزيل الحكيم الحميد وما هو بقول بشر.

٤ ـ وإن في القرآن من مشاهد القيامة ما تتفطر له القلوب ويهتز كيان الإنسان لهول ما ينتظره، فلا يملك معه إلا أن يصاب بقشعريرة، وهو لا يملك صرفاً ولا عدلاً عن هذا المصير إن لم يؤمن بالقرآن العظيم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٧٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ ـ وإن في القرآن الكريم من قصص الغابرين والأمم الماضية ما يحمل كل عاقل إلى تدبر الحال والمآل والتفكير في المصير الزائل فماذا بعد الموت؟. ويتدبر آثار القوم الذين يسمع بأخبارهم فيحمله كل ذلك على الإذعان.

٦ ـ وإن في القرآن من الحقائق الكونية ما يدهش أهل الاختصاص، ويثير الإعجاب فيهم أن تنزل هذه الحقائق على رجل أمي في بيئة أمية ليس لها من العلوم والمعارف ما يرتقى بها إلى إدراك هذه الحقائق التي لم يكتشف كثير منها إلا بعد تقدم وسائل المعرفة.

كل هذه الجوانب وغيرها من أسلحة الجهاد بالقرآن الكريم ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

الجولة الخامسة ـ البرزخ بين البحرين:

يقول جلَّ جلاله: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

ظاهرة عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح من الظواهر التي أدركها الناس على مختلف المستويات فمن ذلك:

أ ـ وجود ينابيع عذبة تحت ماء البحر في المياه الضحلة ويستفيد منها الصيادون كثيراً حيث يعرفون مواقعها فيغوصون إليها لملء أوانيهم عند الحاجة. كما هو معروف في الخليج العربي قرب البحرين وقطر..

ب ـ وجود أنهار ضخمة تحت مياه المحيطات، ويمكن رصدها من الأجواء ويقول أهل الاختصاص: إن كثيراً من هذه الأنهار أضخم من نهر الأمازون والمسيسبي والنيل والفرات، ويمكن إدراك شطآنها عما حولها من مياه المحيط تماماً، كإدراك شواطئ الأنهار على اليابسة وتجري آلاف الكيلومترات قبل أن تتلاشى في مياه المحيط...

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جـ ـ في مصبات الأنهار في بعضها، وفي البحار والمحيطات تتكون الأحواض الخاصة، وكأنها حجرة محجورة تمتاز هذه الحجر بأنواع خاصة من الحيوانات والنباتات والأملاح تختلف عن مياه الأنهار وعن مياه البحار. وربما جرت الأنهار بجوار بعضها ويمكن تمييز النهرين عن بعضهما عند جريان مائهما في مجرى واحد. كما هو الحال في نهري (تشانغام) في باكستان الشرقية، وعدم الاختلاط هذا يعود إلى ظاهرة يسميها العلماء ـ قوة التوتر السطحي أو (المط السطحي) الناشئة من اختلاف التجاذب بين جزيئات الماء العذب والماء المالح لاختلاف كثافتيهما، فيبدو لنا بوضوح الحد الفاصل بينهما. ولتقريب هذه الحقيقية يقول د. عبد العليم خضر: « يقوم القانون على فكرة بسيطة مؤداها أن الماء الموجود في كوب ـ مثلاً ـ لا يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب بمقدار معين، لأن (جزيئات) السوائل عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب تتحول إلى ما هو تحتها، وعندئذٍ توجد غشاوة مرنة على سطح كل نوع من المياه.. ومنها (مياه الكوب).. وهذا الغشاء الدقيق غير مرئي على الإطلاق وهنا يكمن الإعجاز القرآني وهو الذي يمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة هي سمك الغشاء.. وهو غشاء قوي لدرجة أنك لو وضعت عليه إبرة من الحديد فإنها لا تغوص في الماء.. بل تطفو ولذلك تستغل عناكب البحر ومخلوقات مائية أخرى إلى استغلال هذه الحقيقة في السير فوق سطح الماء دون غرق بل دون بلل لأرجلها.. هذه الظاهرة هي ما أطلق عليها العلماء اصطلاح: (المط السطحي) الذي يحول دون اختلاط الماء العذب بالماء المالح أو الزيت.

والمعنى الإجمالي للآية «وجعل بين البحر العذب الفرات ـ النهر ـ وبين البحر الملح الأجاج برزخاً مائياً ـ وهو الحاجز المائي المحيط بماء المصب ـ حبساً على كائناته الحية ممنوعاً عن الكائنات الحية الخاصة بالبحر والنهر»[1].

---

(١) من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، ص١٧ من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.
الدلالات اللغوية في الآية الكريمة:

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ودلّت دراسات المتخصصين في علوم البحار:

١ ـ أن مياه الأنهار شديدة العذوبة.

٢ ـ أن مياه البحار شديدة الملوحة.

٣ ـ أن مياه منطقة المصب مزيج من الملوحة والعذوبة. وهي منطقة فاصلة بين النهر والبحر متحركة بينهما بحسب مد البحر وجذره، وفيضان النهر وجفافه. وتزداد الملوحة فيها كلما قربت من البحر، وتزداد العذوبة كلما قربت من النهر.

٤ ـ يوجد برزخ مائي يحيط بمنطقة المصب ويحافظ على هذه المنطقة بخصائصها المميزة لها، حتى ولو كان النهر يصب في البحر من مكان مرتفع في صورة شلال.

٥ ـ عدم اللقاء المباشر بين ماء النهر وماء البحر في منطقة المصب بالرغم من حركة المد والجزر وحالات الفيضان والانحسار التي تعتبر من أقوى عوامل المزج، لأن البرزخ المحيط بمنطقة المصب يفصل بينهما على الدوام.

٦ ـ لاختلاف الكتل المائية الثلاث (ماء النهر، ماء البحر، ماء المصب) تختلف الكائنات الحية التي تعيش فيها:

= ـ مرج: خلط، اضطراب.
وقال ابن فارس: الميم والراء والجيم أصل صحيح يدل على مجيء وذهاب واضطراب انظر معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٣١٦.
ـ عذب فرات: شديد العذوبة.
ـ ملح أجاج: شديد الملوحة.
ـ برزخاً: الحاجز والفاصل.
ـ حجراً محجوراً: منعاً ممنوعاً.
قال ابن فارس: الحاء والجيم والراء أصل أحد، وهو المنع والإحاطة على الشيء.. والعقل يسمى حجراً لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]. انظر معجم مقاييس اللغة: ٢/ ١٣٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ معظم الكائنات التي في البحر والنهر والمصب لا تستطيع أن تعيش في غير بيئتها.

ـ بتصنيف البيئات الثلاث باعتبار الكائنات التي تعيش فيها تعتبر منطقة المصب منطقة حجر على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها، لأن هذه الكائنات لا تستطيع أن تعيش إلا في نفس الوسط المائي المتناسب في ملوحته وعذوبته مع درجة الضغط الأسموزي[1] في تلك الكائنات. وتموت إذا خرجت من المنطقة المناسبة لها وهي منطقة المصب.

وهي في نفس الوقت منطقة محجورة على معظم الكائنات الحية التي تعيش في البحر والنهر، لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها بسبب اختلاف الضغط الأسموزي أيضاً[2]. فسبحان خالق المخلوقات الذي وضع لها سنناً في تكوينها ومعايشها وهيأ لها المناخ المناسب وجعل بين هذه المياه برزخاً وحجراً محجوراً لحفظ خصائص هذه المياه لتكون بيئة مناسبة لتلك الكائنات.

وينجر الكلام بمناسبة ذكر الحاجز بين الماء العذب الفرات وبين الماء الملح الأجاج إلى الحديث عن الحاجز بين البحرين كما في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٣].

وقوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

الدلالات اللغوية للكلمات:

البحر: قال ابن فارس: الباء والحاء والراء أصل. قال الخليل: سمي البحر بحراً لاستبحاره وهو انبساطه وسعته، ويقال للماء إذا غلظ بعد عذوبة: استبحر،

---

(١) الضغط الأسموزي: مقدار نفاذ الأملاح في الأغشية.

(٢) بتصرف واختصار من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، ص٢٣ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وماء بحري أي ملح[1]، وإذا أطلق البحر دل على البحر الملح، وإذا قيّد دل على ما قيّد به.

والاستعمال القرآني هو إطلاق البحر على الملح، والنهر على العذب، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وكذلك في الحديث النبوي: «إنا نركب البحر ومعنا القليل من الماء»[2].

البرزخ: هو الحاجز أو الفاصل.

البغي: أصل البغي مجاوزة الحد[3].

المرجان: ضرب من اللؤلؤ. وعن الزجاج: المرجان أبيض شديد البياض.

وعن ابن مسعود: المرجان الخرز الأحمر[4].

وقيل: اللؤلؤ: صغار الدر، والمرجان كباره.

وحاصله أن المرجان نوع من الزينة يكون بألوان مختلفة بيضاء وحمراء وكبيراً وصغيراً، وحرف العطف يقتضي المغايرة بين اللؤلؤ والمرجان.

التفسير الإجمالي للآيات:

أرسل الله مياه البحرين الملحين يلتقيان وجعل بين ماء البحرين عند الالتقاء حاجزاً يفصل بينهما بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر بخصائصه. فلا تكذبوا معشر الجن والإنس بدلائل عظمة الخالق وتوحيده من خلال مخلوقاته.

ويخرج من البحرين الملحين اللؤلؤ والمرجان وهي من أفخر أنواع الزينة لكم...

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ١/ ٢٠١؛ لسان العرب: ٤/ ٤١؛ المفردات للراغب.

(٢) رواه أبو داود في سننه: ١/ ٦٤؛ والترمذي، انظر تحفة الأحوذي: ١/ ٢٢٤.

(٣) لسان العرب: ١٤/ ٧٨.

(٤) زاد المسير: ٨/ ١١٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول أهل الاختصاص:

اكتشف العلماء أن هناك برزخاً بين البحرين يتحرك بينهما يسميه العلماء (الجبهة) وبوجود هذا الحاجز يحافظ كل بحر على خصائصه التي قدرها الله له.

وهناك اختلاط بين البحرين رغم وجود هذا البرزخ ـ الحاجز ـ لكنه اختلاط بطيء يجعل القدر الذي يعبر من بحر إلى بحر آخر يتحول إلى خصائص البحر الذي ينتقل إليه دون أن يؤثر على تلك الخصائص.

اكتشف علماء البحار سر اختلاف تركيب البحار الملحة في عام ١٨٧٣م على يد البعثة العلمية البحرية الإنكليزية في رحلة (تشالنجر) التي استغرقت ثلاثة أعوام، وهي تجوب جميع بحار العالم، أن المياه في البحار تختلف في تركيبها عن بعضها من حيث درجة الملوحة، ودرجة الحرارة، ومقادير الكثافة، وأنواع الأحياء المائية والنباتات البحرية.

واستغرب العلماء عدم امتزاج البحار وتجانسها رغم تأثير قوتي المد والجزر التي تحرك مياه البحار مرتين كل يوم، وتجعل البحار في حالة ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، إلى جانب العوامل الأخرى التي تجعل مياه البحر متحركة مضطربة على الدوام؟.

وأدرك العلماء السر في ذلك عام ١٩٤٢م حيث أسفرت دراستهم بعد أن أقاموا مئات المحطات البحرية لدراسة خصائص البحار والظواهر المتعاقبة عليها، أدركوا وجود خواص مائية تفصل بين البحار الملتقية، وتحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر من حيث الكثافة والملوحة، والأحياء المائية والحرارة، وقابلية ذوبان الأوكسجين في الماء، ويكون الاختلاط بين ماء البحار عبر هذه الحواجز بطريقة بطيئة يتحول معها الماء الذي يعبر الحاجز إلى خصائص البحر الذي دخل فيه.

وأخيراً تمكن الإنسان من تصوير هذه الحواجز المتحركة المتعرجة بين البحار الملحة عن طريق تقنية خاصة بالتصوير الحراري بواسطة الأقمار الصناعية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومما وصل إليه علم البشر: أن اللؤلؤ والمرجان يتكونان في المناطق البحرية النقية ولا يتكونان في مناطق امتزاج المياه العذبة مع مياه البحر. وتؤكد الدراسات البحرية الحديثة على أن المرجان يوجد فقط في المناطق المدارية ـ دون الاستوائية ـ غير الممطرة أو قليلة المطر، ولا ينمو في مناطق المياه العذبة[1]. قام الباحث محمد إبراهيم السمرة الأستاذ بكلية العلوم، قسم علوم البحار في جامعة قطر بدراسة ميدانية في خليج عمان والخليج العربي بالتعاون مع سفينة البحوث (مختبر البحار) التابعة لجامعة قطر في الفترة (١٤٠٤ ـ ١٤٠٦هـ) وتضمّن البحث مقارنة واقعية بين الخليجين بالأرقام والحسابات والرسومات والتحليل الكيميائي، وبيّن اختلاف خواص كل منهما عن الآخر من الناحية الكيميائية والنباتات السائدة في كل منهما، ووضّح البحث وجود منطقة بين الخليجين تسمى في علوم البحار (منطقة المياه المختلطة) أي (منطقة البرزخ).

وبيّنت النتائج أن عمود الماء في هذه المنطقة يتكون من طبقتين من المياه، إحداهما سطحية أصلها من خليج عمان، والأخرى سفلية أصلها من الخليج العربي.

أما في المناطق البعيدة والتي لا يصل إليها تأثير عملية الاختلاط بين الخليجين فإن عمود الماء يتكون من طبقة واحدة متجانسة وليس من طبقتين.

وأكدت النتائج أنه برغم هذا الاختلاط (في المناطق التي بها مياه مختلطة) وجود نوعين من المياه فوق بعضهما البعض فإن حاجزاً ثابتاً له استقرار الجاذبية وقوتها يقع بين طبقتي المياه، ويمنع مزجهما أو تجانسهما حيث يتكون بذلك مخلوط غير متجانس.

وأوضحت النتائج أن هذا الحاجز إما أن يكون في الأعماق (من ١٠ إلى ٥٠ متراً) إذا كان اختلاط مياه الخليجين راسياً. أي أن أحدهما فوق الآخر، وإما أن

---

(١) باختصار وتصرف من كتاب: من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، ص٤٥ وما بعدها.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يكون هذا الحاجز على السطح إذا تجاورت المياه السطحية لكل من الخليجين[1].

الجولة السادسة ـ خلق الإنسان ـ النسب والصهر:

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

وخلق الجنين من ماء النطفة الأمشاج أغرب وأعقد من الكائنات التي تخلق من ماء السماء، إن الخلية الواحدة من ماء الرجل والخلية الواحدة من ماء المرأة (البويضة) تحملان عناصر الوراثة للجنس كله، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه في طريق الحياة.

ـ فجعله نسباً وصهراً، وقسمه قسمين ذوي نسب، ذكوراً ينسب إليهم، وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].

ـ خلق من الماء بشراً. من المني، وقيل: الماء الذي خمرت به طينة آدم عليه السلام وجعله جزءاً من مادة البشر ليجمع ويتسلسل ويستعد لقبول الأشكال والهيئات.

وقيل: هو الماء المطلق الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ـ فجعله نسباً: يتزوج ذكر فيلد له ويثبت النسب من الذكور فينسب إليهم، وقيل: المراد بالنسب هو الذي لا يحل نكاحه.

ـ وصهراً: بتزوج أنثى يصاهر بهن كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

---

(١) انظر: من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، ص٥٢ وما بعدها.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والصهر: القرابة والختن وجمعه أصهار. والصهر أهل بيت المرأة بالنسبة للزوج، ويقال لهم: الأختان، وأهل بيت الزوج أصهار المرأة، ويقال لهم: الأحماء، واشتملت آيات المحرمات من النساء على سبعة أصناف حرمن من جهة النسب وسبعة من جهة الصهر. وجعل ابن عطية والزجاج الرضاع من جملة النسب لقول رسول الله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»(١).

ـ وكان ربك قديراً: حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

قديراً: بليغ القدرة(٢).

إن تكوين الإنسان وهو أشرف مخلوق على هذه الكرة الأرضية من النطفة الماء المهين لهو أشد غرابة وأعجب دلالة على قدرة الله الخالق البارئ، ولكن إلف العادة أذهب الاستغراب من نفس البشر، لذا تأتي الآيات الكريمة لتذكر الإنسان بهذا الأمر العجيب والبرهان الدامغ بين الفينة والأخرى ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات: ٣/ ١٤٩.

(٢) يأتي التذكر بأصل الإنسان حسب السياق القرآني:
في حال ذكر قدرة الله تعالى وعجيب صنعه بنسبته إلى الماء أو الطين أو الطين اللازب أو صلصال من الفخار، كما في قوله تعالى:
﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].
﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].
وعند ذكر تكبر الإنسان وعلوه وتجبره يذكره بأصله من التراب المهين أو من النطفة المهينة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].
وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٨].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٦٢]. ثم خلق من هذا البشر زوجه وجعل بينهما مودة ورحمة، وخلق منهما البنين والحفدة والأصهار، لتعمر الأرض وتقوم الحضارات البشرية في أنحاء المعمورة، يقول عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

إن قدرة الله في خلق الإنسان وتكوينه وتناسله وتكاثره، ووسائل معيشته وتعامله لأعجب وأدق من أي آية كونية أخرى، وأدل على عظمة الخالق وقدرته من جميعها ولكن الناس يغفلون.

الجولة السابعة ـ كيف يعبد غير الله؟! تعقيب واستغراب:

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

يأتي التعقيب والاستغراب بعد هذه الجولات في الآفاق والنفس الإنسانية التي تدل كل واحدة منها على توحيده، وأنه الفرد الصمد الغني عن كل شيء وكل شيء مفتقر إليه في وجوده وعمله واستمراره، كيف يتخذ هؤلاء الجاهلون الكافرون ـ ومن ضمنهم مشركو مكة ـ من دونه آلهة، كيف يوجهون عبادتهم وتعظيمهم لهذه الأصنام والأوثان والمخلوقات العاجزة عن سوق النفع لأنفسها ولعابديها أو دفع الضر عن أحد.

ولكن الكافر عدو محارب لكل حق ـ ولكل عقل ولكل مصلحة حقيقية ـ هو حرب على الله الذي خلقه وسوّاه. إنه يحارب الله عندما يعلن الحرب على رسوله.

وهو يحارب الحق عندما يكذب بآيات الله وبالقرآن الكريم، وهو حرب على العقل عندما يزعم أن محمداً ألّف هذا الكتاب ونسبه إلى ربه، وهو يلقي بنفسه في التهلكة وينسى مصلحة نفسه عندما يعادي دين الله وشريعته. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

إنه يعين الشيطان على ربه سبحانه وتعالى بالعداوة والشرك.

مناسبة المقطع التاسع لمحور السورة:

المقطع التاسع بجولاته المتعددة وثيق الصلة بمحور السورة، ففيه تفصيل للمعجزة القرآنية؛ فمن خلال بيان سنن الله في الكون في الشمس والظل والرياح والمطر والبحار والبرزخ والنسب والصهر، وكل ذلك مسخر لمصالح الإنسان، وتهيئة المناخ المناسب لمعيشته وسعادته لشكر المنعم جلَّ جلاله عليه، إلا أن القوم قابلوا النعمة بالكفران وانشغلوا بالاستمتاع بها عن تدبر ما يلزمهم تجاه خالقها ومسخرها.

والجانب المعجز في ذلك هو أن تأتي هذه الحقائق الكونية على لسان النبي الأمي الذي لم يكن له عهد بهذه القضايا كما لم يكن للمشركين عهد بها. إن ورود هذه الحقائق الضخمة في آيات القرآن الكريم لدليل باهر على أن القرآن كلام الله المنزل من لدن حكيم خبير: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع العاشر

مهمة الرسول ﷺ ومنهجه في دعوة المعاندين

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان: ٥٦ ـ ٦٢].

المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

«لما أفضى الكلام بأفانين انتقالاته إلى التعجيب من استمرارهم على أن يعبدوا ما لا يضرهم ولا ينفعهم، أعقب بما يومئ إلى استمرارهم على تكذيبهم محمداً ﷺ في دعوى الرسالة بنسبة ما بلغه إليهم إلى الإفك، وأنه أساطير الأولين، وأنه سحر، فأبطلت دعاويهم كلها بوصف النبي ﷺ بأنه مرسل من الله، وقصره على صفتي التبشير والنذارة.

وهذا الكلام الوارد في الرد عليهم جامع بين إبطال إنكارهم لرسالته وبين تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه ليس بمضل ولكنه مبشر ونذير، وفيه تعريض بأن لا يحزن لتكذيبهم إياه. ثم أمره بأن يخاطبهم بأنه غير طامع من دعوتهم أن يعتز باتباعهم إياه..»[1].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩/ ٥٧.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المعنى الإجمالي للمقطع:

إن أمر الكافر لعجب! كيف تطاوعه نفسه على الاستمرار على الباطل بعد أن أقيمت البراهين القاطعة والدلائل الدامغة والبينات المحسوسة على وحدانية الله جلَّ وعلا، وعلى صدق رسوله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، من خلال تلك الجولات في الكون وأفلاكه، والرياح وتصريفها، والمياه وينابيعها، والبحار وأمواجها، ومن خلال النفس الإنسانية ووشائجها، وقراباتها ونسبها مع كل تلك البيِّنات التي يلمسها فيما حوله وفي نفسه، ينكب على عبادة الوثن الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً، ويكذب الرسول الذي جاء بالحق والصدق ويعلن مقاطعته وعداوته.

وكم هو شاق وصعب على النفس الكريمة الحريصة على إيصال الخير للبشر جميعاً أن تقابل بمثل هذا الصد والمشاقة.

لذلك تأتي الآيات المرة تلو الأخرى تسرّي عن رسول الله ﷺ ما يلاقيه من القوم، وتسليه عن الجفاء والعناد الذي يقابل به، فجاءت آيات هذا المقطع لتذكر الرسول ﷺ أن مهمته التبليغ ليس إلا، والتبليغ بشقيه البشارة والإنذار هما المطلوبان منه، أما هداية القوم وحملهم على الإيمان، فهذا تحت مشيئة الله خالقهم وليس ضمن مهمات الرسول.

وفي القرآن المكي والمدني يتكرر ذلك كثيراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

ولكن لا يعني ذلك أن يتركهم بعد التبليغ والبيان، بل لا بد من التكرار والمجاهدة معهم كما فعل نوح عليه السلام مع قومه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

وهنا بعد بيان قصر مهمة الرسول على البشارة والإنذار، عطف عليه الأمر بأن يذكّرهم أنه لا يبتغي بذلك منهم أجراً ولا مالاً ولا جاهاً ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥٧][1].

---

(١) اختلف المفسرون في عودة الضمير في (عليه) قالوا: يعود على التبليغ المفهوم من السياق، وقيل: على المذكور من التبشير والإنذار، وقيل: على القرآن، ولعله الأولى تناسقاً مع (صرفناه) (وجاهدهم به) وانسجاماً مع محور السورة. كما اختلف المفسرون في الاستثناء (إلا من شاء..) فقال بعضهم: إنه منقطع، بمعنى: ولكن من أراد أن ينفق ويتصدق في سبيل الله فله ذلك، وذهب بعضهم إلى أن الاستثناء متصل على أن يكون من باب قول القائل:

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم ... يعاب بنسيان الأحبة والوطن

وقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وفي ذلك قطع كلي لشائبة الطمع في العوض منهم مقابل دعوتهم إلى الهداية، وإظهار لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك ـ مع كون نفعه عائداً إليهم عائداً إليه ﷺ، مثل قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه). وقول المعلم المؤدب لتلميذه: «أجري على تعليمك هذا أن تنجح بتفوق على أقرانك وتكون سعيداً في حياتك».

وقيل المعنى: ما أسألكم عليه أجراً إلا أجر من آمن، أي الأجر الحاصل لي من إيمانه، فإن الدال على الخير كفاعله.

انظر الأقوال السابقة في روح المعاني، للألوسي: ١٩/ ٣٧؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩/ ٥٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما كان الاستمرار في دعوة القوم يحتاج إلى قوة دافعة وعزم قوي من صاحبه، جاء الأمر بأن يتوكل على الحي الذي لا يموت، الغني عن كل شيء، الركن القوي الذي لا يضام من توكل عليه حق التوكل ولا يذل من والاه. والعروة الوثقى التي تمتن الصلة بالقوي العزيز، تسبيحه وتمجيده آناء الليل وأطراف النهار، وتنزيهه عما ألصق به الجاهلون السادرون في ضلالهم من صفات النقص والعجز، فإنه خبير بما ينسبون إليه، سميع بما يقولون عنه، عليم بدخائل نفوسهم العاتية وعقولهم الزائغة. ولا شك أن في هذه اللفتة والتنبيه لرسوله ﷺ بالإعراض عن مقولات القوم والاستمرار في دعوته، إشارة إلى أنه المسؤول عن إعطاء الأجر، فلن تذهب جهود رسوله ﷺ سدى في دعوة القوم، بل ربه المتولي لشؤونه هو المتكفل بأجره[1].

إن في جملة ما ينزه عنه الحي القيوم إضاعته من يتوكل عليه أو إنقاص أجره، وخذلانه من يستنصره وعجزه عن عقوبة من يكفر به ويكذب رسوله.

إن من مظاهر كمال قدرته وعظمته تفرده بخلق السماوات والأرض، ووضع نظامها وبث المخلوقات فيها ووضع أقواتها وطاقاتها، وخلق السنن التي تسير بموجبها، كل ذلك في ستة أيام، فكيف يكفر بهذا الخالق العظيم، وكيف لا يركن على عظيم جنابه، وكيف يجحد الجاحدون وعده ووعيده ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

---

(١) يقول ابن عاشور: عدل عن اسم الجلالة إلى هذين الوصفين (الحي الذي لا يموت) لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه لأنه الدائم، فيفيد ذلك معنى التوكل في الكون عليه، فالتعريف في (الحي) للكامل، أي الكامل في حياته لأنها واجبة باقية مستمرة، وحياة غيره معرضة للزوال بالموت ومعرضة لاختلاف أثرها بالذهول كالنوم ونحوه، فإنه من جنس الموت، وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم بالأصنام وهي أموات غير أحياء. التحرير والتنوير: ١٩/ ٥٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

من مظاهر لطفه ورحمته بمخلوقاته أن يعلمهم التؤدة والتأني في أحوالهم ومعايشهم، فهو القادر الذي يقول للشيء كن فيكون، لكنه أجرى كونه على سنن مطردة وبنى مسببات على أسباب ظاهرة أو خفية، فخلقها في ستة أيام[1]، ثم استوى على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، فالاستواء معلوم والكيف مجهول، ونؤمن بأسماء الله وصفاته على مراده وبما يليق بذاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

إن هؤلاء الجاهلين المعاندين لايتركون حماقاتهم مهما أقيمت لهم الحجج والبراهين، ومهما أبرزت لهم الدلائل والبيّنات، ومهما بينت لهم صفات الكمال للخالق جلَّ جلاله، فإذا طلبت منهم بعد كل ذلك، أن يخضعوا للرحمن قالوا: وما الرحمن؟! مستغربين متجاهلين، وأنكروا هذا الطلب، وأبوا الاستجابة،

---

(١) اختلف المفسرون في المراد بالأيام الستة: فمنهم من قال هي كأيامنا، بدء الخلق يوم السبت وانتهى منه في آخر ساعة من يوم الجمعة، ويؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيه الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»: ٢/ ٣٢٧.

ـ ومنهم من قال: المراد بها مقدار ستة أيام من أيامنا المعهودة من طلوع الشمس إلى غروبها، لأن الأرض لم تخلق بعد والنظام الشمسي لم يكن، فلا تعرف الأيام الناتجة عن دوران الأرض حول نفسها.

ـ وذهب آخرون: إلى أن المراد بها ست دورات فلكية أو كونية، الله أعلم بمقدارها، فاليوم نسبي للكواكب والنجوم تطول أو تقصر عن يوم الأرض، وقد أطلق القرآن الكريم اسم اليوم على ألف سنة، كما في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

وأطلق على خمسين ألف سنة، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولجُّوا في طغيانهم وعنادهم يعمهون، بل ذهبوا إلى مزيد من النفرة والابتعاد واستهزؤا بمن دعاهم وغالطوا قائلين: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمن. وما أدركوا أن لله الأسماء الحسنى. ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ومجيء صفة (الرحمن) في هذا السياق بعد ذكر خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، له دلالته الرائعة لبيان سعة رحمته بمخلوقاته، بخلاف ملوك الأرض الجبابرة، فإن الإنسان إذا اتسع ملكه وقوي شأنه أخذه الطغيان والجبروت على الرعية.

إن الرحمن قد سبقت رحمته غضبه، فهو يحسن إلى عباده في الدنيا كافرهم ومؤمنهم، فلا يقطع عنهم الرزق والرعاية، وأرجأ حسابهم إلى الدار الآخرة. وسخّر للجميع السنن الكونية ووضع فيها النواميس التي تخدم من توصل إليها كما بينها في قوله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء ١٨ ـ ٢١]

ومن مظاهر رحمته المتنامية بعباده ورعايته لمصالحهم، تسخير ما يقيم به شؤون حياتهم ومعيشتهم حيث جعل في السماء بروجاً[1]. وخلق فيها السراج

---

(١) البروج في اللغة: القصور، كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. وقيل: القصور فيها الحرس. وقيل: بروج النجوم، =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الوهاج والقمر المنير، فتولّد من خلق الشمس ووضع نظام المجموعة الشمسية وفق تلك البروج، الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر، فهل من متدبر لدقائق صنع الله تعالى في هذه البروج والليل والنهار. فإن فيها الدلائل الباهرة على عظيم قدرة الخالق جلّ جلاله وواسع رحمته بعباده مما يستوجب شكر المنعم على إنعامه ولطفه بعباده.

فوائد:

الأولى: عدد البروج اثنا عشر برجاً جمعها بعضهم بقول:

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

وتنقسم البروج إلى قسمين شمالية وجنوبية.

فالشمالية تخص فصلي الربيع والصيف:

التوأمان: الحمل والثور والجوزاء ربيعية.

العذراء: السرطان والأسد والسنبلة صيفية.

والجنوبية تخص فصلي الخريف والشتاء.

الرامي: الميزان والعقرب والقوس خريفية.

السمكتان: الجدي والدلو والحوت شتوية.

ولحلول الشمس في كلّ من الاثني عشر برجاً، يختلف الزمان حرارة وبرودة والليل والنهار طولاً وقصراً، وفي إدراك الزروع ونضج الثمار ونحو ذلك، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها[1].

= وسميت بذلك من التبرج وهو الظهور.

(١) انظر روح المعاني، للألوسي: ١٩/ ٤٠. بتصرف واختصار.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الثانية: في الآية الكريمة إيماء إلى أن اعتبار التقسيم في البروج كان عن وحي من الله جلّ جلاله، والمشهور عند علماء الفلك أن أوّل من اعتبر البروج وقسّمها هو (هرمس) ويقال: إنه إدريس عليه السلام.

الثالثة: يأتي وصف الشمس في القرآن الكريم بالسراج، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

والضياء، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

بينما يأتي وصف القمر[1] بالنور والمنير، ويقول أهل الاختصاص في التفريق بين الشمس والقمر: إن نور الشمس ذاتي يولد إضاءة وحرارة كالسراج، أما نور القمر فانعكاس لما يقع على سطحه من ضياء الشمس، فيعكس النور لا الحرارة.

الرابعة: الاستدلال هنا ـ في المقطع العاشر ـ بهذه المخلوقات (الشمس والقمر والليل والنهار) مغاير للاستدلال المتقدم في المقطع التاسع، حيث ذكر هناك أثر الليل والنهار في حياة الناس ومعايشهم، بينما ذكرت هنا للاستدلال بهما على عظمة الخالق ودقة صنعه في مخلوقاته الهائلة.

مناسبة المقطع العاشر لمحور السورة:

كانت الجولات الكثيرة في المقطع التاسع في الأجرام السماوية ودقة صنعها ووضع نظامها وفي النفس الإنسانية بداياتها وأعراضها ونهاياتها، فجاء المقطع العاشر لبيان أن الآيات والبراهين أضحت جلية لكل ذي عقل وبصيرة، ولم يبق شبهة تستحق الوقوف عندها عند كل ذي إدراك، فإذا بقي الناس على

---

(١) القمر في أول الشهر يسمى هلالاً، وفي وسطه بدراً، ويطلق القمر على القمر بعد الليلة الثالثة إلى آخر الشهر.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عنادهم مع كل ذلك، فلست المقصّر المآخذ يا محمد فإن مهمتك مقصورة على البشارة والإنذار والبيان للناس، ولست المسؤول عن هدايتهم، فهؤلاء القوم اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، ويظنون أنك تريد بهذا حطام الدنيا وجاهها، وهذا مبلغ علمهم من حياتهم الدنيا، وتوكل في أداء رسالتك على الحي الذي لا يموت فلن يضيع لك أجراً ولن يخذلك في مسعاك. فهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وهو واضع سنن هذا الكون فتوجه إلى شكره وذكره.

إن الصلة بين هذا المقطع وبين سابقه واضحة جداً، كما أن الصلة بين المقطع ومحور السورة جلية، فإن المحور يدور حول تصديق الرسول ﷺ من خلال معجزة الفرقان، ومهمة الرسول هي تبليغهم الرسالة (القرآن الكريم) ومجادلتهم به، ومجالدتهم عليه ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢]. ولا يدخل اليأس إلى قلبه في عنادهم واستهزائهم بما جاءهم به من الحق، فإن الله مولاه وناصره ولن يخذله ولن يضيع له أجراً.

إنَّ هذا المقطع رافد كبير من الروافد التي تصب في مجرى السورة وتيارها لإبراز شأن الرسالة وصدق الرسول في دعوته وصبره على الاستمرار في أداء مهمته.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقطع الحادي عشر

ثمرات الرسالة الربانية

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٧].

بين يدي المقطع الحادي عشر (خاتمة السورة):

آثار العقيدة في سلوك الأفراد والمجتمعات:

لكل عقيدة آثارها على مستوى الأفراد، وحضارتها على مستوى المجتمعات.

ـ فالعقائد القديمة الوضعية: الآيونية واليونانية والرومانية أوجدت أفراداً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يهتمون بإشباع الرغبات والشهوات والنزوات، وأوجدت حضارات مادية تجسدت في التماثيل والنصب والمسارح التي ترمي إلى إشباع السعار الجنسي وشهوة الانتقام وتقديس القوة والجمال الجسدي، ولازلنا نرى ذلك من خلال التماثيل وحلبات الصراع والمدرجات.

ـ والعقائد المعتمدة في أصولها على ديانات سماوية كاليهودية والنصرانية بعد إدخال أصحابها التحريفات عليها أوجدت انفصاماً في الشخصية الإنسانية حيث حصرت الجانب الروحي في المعابد، وأطلقت البهيمية للأفراد خارجها فاعتمدت على الحضارات القديمة في هذا الجانب، فنتج عن هذا الانفصام حضارة مادية قاسية لا مجال للجانب الإنساني فيها.

ـ والحضارة الشرقية الروحية أوجدت الشخصية المتقوقعة على نفسها التي لا تتطلع إلى أكثر من تعذيب الجسد لتضخيم الجانب الروحي، ولم تفكر في إعمار الأرض وإقامة أنظمة للمدنية لمعتقديها.

ـ والإسلام هو الدين الوحيد الوسط الذي لبَّى متطلبات الروح، فهذّب وربّى من غير أن يخل بالجانب المادي سواء على مستوى متطلبات النفس البشرية أو على مستوى العطاء الحضاري للإنسانية.

أ ـ فأوجد لدى الفرد القناعات العقلية في جانب العقائد، فلا يحس المسلم بأي تناقض بين ما يعتقد وبين ما يستنتجه العقل السليم والتفكير السوي.

ب ـ وأشبع الأشواق الروحية لدى الفرد بالعبادات البدنية والمالية والشرائع التفصيلية في مجالات الحياة كلها.

جـ ـ وأعطى للجانب المادي حقه فلبَّى الحاجات العضوية من المأكل والمشرب، وأشبع الغرائز الفطرية بعد تهذيبها بالهدايات الربانية، وما حرّم على الإنسان شهوة مادية أو نفسية إلا وأوجد له البدائل الصحيحة السليمة من الآفات والمفاسد.

فكان نتيجة المنهج الرباني الذي أنزله الله على رسوله ﷺ الفئة المؤمنة من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عباد الرحمن التي تتحدث عنها الآيات الكريمة في آخر سورة الفرقان.

وكانت الحضارة الإنسانية الربانية التي لم يعرف تاريخ البشرية لها مثيلاً نتيجة تطبيق عباد الرحمن لشرائع ربهم المنزلة.

المناسبة بين خاتمة السورة والمقطع العاشر:

لما ذكر الكفار بالفظاظة والغلظة على النبي ﷺ وعداوتهم له ومظاهرتهم على خالقهم، وختم الحديث عنهم وعن عدم انتفاعهم بالآيات الكونية، فعباد الشيطان لا يتذكرون، ولا يشكرون لما لهم من القسوة. عطف على هذا المقدّر أضدادهم واصفاً إياهم بأضداد أوصافهم مبشراً لهم بضدِّ جزائهم، فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ . . . ﴾ فأضافهم إليه رفعة لهم، وإضافتهم إلى صفة الرحمن أبلغ عندما أنكر الكفار هذه الصفة.

لقد ختمت السورة بذكر أوصاف عباد الرحمن فكأنهم الثمرة الجنية للجهاد الشاق الذي بذله الذي أُنزل عليه الفرقان، ووصفهم بخصال تتعلق بتعاملهم مع أنفسهم، وتعاملهم مع غيرهم من الناس ومعاملتهم لربهم جلَّ جلاله. عباد الرحمن هم المثل الحية الواقعية للفئة التي أراد الإسلام تكوينها بمنهجه التربوي الخاص، وهم الذين يستحقون أن يعبأ بهم رب السماوات والأرض، ولولاهم ولولا تضرعهم إلى ربهم لَـمْ يعبء الرحمن أن ينزل بأسه بأهل الأرض جميعاً.

المعنى الإجمالي للمقطع:

جاءت خصال عباد الرحمن في خاتمة السورة للإشارة إلى أن القرآن المنزل على محمد ﷺ قد اشتمل على الرسالة الربانية والمنهج الإلـهي الذي من شأنه أن ينشىء فئة من الناس هذه أوصافها وخصائلها. وهي شهادة ضمنية لرسول الله ﷺ بنجاح دعوته، فالمذكورون هم أتباع الفرقان عامة، ويدخل فيهم أصحاب رسول الله ﷺ دخولاً أولياً.

وجاءت هذه الخصال على أربعة أقسام:

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أ ـ قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ب ـ وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك[1]، وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨].

جـ ـ وقسم من الاستقامة على شرائع الإسلام، وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤ ـ ٧٢].

د ـ وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال، وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2]. [الفرقان: ٧٤].

---

(١) من عادة القرآن ذكر التخلية قبل التحلية، وفي ذكر صفات عباد الرحمن عكس الأمر، حيث ذكرت التحلية قبل التخلية، والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن الصفات التي قدمت في ذكر ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] صفات جبلية فيهم غير مكتسبة، والتخلية والتحلية تكون للصفات المكتسبة. كما أن في التواضع والحلم نوعاً من التخلية؛ فالتواضع تخلية عن الكبر، والحلم تخلية عن السفه والطيش.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩/ ٦٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وجاءت هذه الصفات من خلال اثني عشر خُلقاً هي من أسس الأخلاق الإسلامية[1] وهي:

١ ـ خلق التواضع. ٢ ـ والحلم. ٣ ـ والتهجد. ٤ ـ والخوف. ٥ ـ وترك الإسراف والإقتار. ٦ ـ والبعد عن الشرك. ٧ ـ واجتناب القتل. ٨ ـ والنزاهة عن الزنى. ٩ ـ والتوبة. ١٠ ـ وتجنب الكذب. ١١ ـ وقبول المواعظ. ١٢ ـ والابتهال إلى الله تعالى.

ومن المستحسن أن نخص كل صفة من صفات عباد الرحمن بكلام مختصر نذكر فيه أهمية هذه الصفات للمؤمن والأسلوب القرآني في التعبير عنها:

الأول ـ التواضع:

وهو خُلق جبلي فيهم، وذكر الأرض في سياق التعبير عن تواضعهم للتذكير بالأصل الإنساني الذي خلق من الأرض، فمن تذكر أصله لا يمكن أن يتكبر على عباد الله، وهو يعلم أنه مخلوق من هذه التربة المحقرة التي تداس بالأقدام ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: ٥٥].

ولذا كان من المناسب أن يذكّر المتكبر المتعجرف على عباد الله المتمرد على أحكام شرع الله، بأصله والتربة التي خلق منها. ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

والتواضع خُلُق رفيع يزين أهل العلم والفضل والنسب والجاه ويزيدهم جمالاً على جمال، وبهاء وعزاً على ما هم فيه.

---

(١) يقول الألوسي: وإعادة الموصول في المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول، للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة، وصف جليل على حياله، له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل شيء من ذلك تتمة لغيره. وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي. روح المعاني: ١٩/ ٥٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الثاني ـ الحلم:

فبالإضافة إلى الكمالات الذاتية مع أنفسهم، يتحلون بالكمالات الخلقية عند تعاملهم مع غيرهم، وعلى رأس هذه الكمالات الحلم، فإذا تعرضوا لخطاب فاقدي العلم والحكمة، ظهرت آثار علمهم وحكمتهم على تصرفهم فأعرضوا عن سفاهة الجاهلين وتركوا المقابلة بالمثل، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وهو سلام متاركة وإعراض، وليس سلام تحية وترحيب، وهو شأن المؤمن في كل تصرف مع أهل السفه والطيش.

كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿... وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٤ ـ ٥٥].

والحُلم على أذى الآخرين والإعراض عن الجهالات من الآداب الرفيعة والمروءات المستحسنة. فالنزول إلى درجة السفهاء نوع من الطيش.

الثالث ـ التهجد:

وبعد ذكر تعاملهم مع أنفسهم وتعاملهم مع غيرهم، ذكرت صلتهم بخالقهم المحسن إليهم، وخصوا الليل بالصلاة والقيام ليكون أبعد عن الرياء، ولأن الخشوع فيه أكثر، كما أشارت الآيات الكريمة إلى هذه الحقيقة ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

وعندما علّل الرب عزَّ وجلّ لتبوئ المتقين الجنات والعيون، ذكر قيامهم الليل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

وقد أُمر رسول الله ﷺ ومن ورائه أمته بالاستمرار والدوام على الذكر وقيام الليل، لما في الليل من الصفاء الروحي والتلذذ بالمناجاة والابتهال: فقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩]. وخص السجود بالذكر، والتقديم على القيام لأن العبد يكون أكثر قرباً من الله وهو ساجد، ولبيان المقابلة بين حالهم وحال المعاندين الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠]، فعباد الرحمن نهارهم في خشوع، وليلهم في خضوع وتذلل لباريهم عزَّ وجلّ.

الرابع ـ الخوف من سوء المآل والمصير:

إن المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فعباد الرحمن على الرغم من صلاتهم وقيامهم بالليل، يلجؤون إلى ربهم العلي القدير أن يجنبهم سوء العاقبة، فلا يحتفلون بأعمالهم، ويخشون ردها عليهم ويتهمون أنفسهم بعدم القيام بها على الوجه الأكمل من صدق النية والتوجه والإخلاص فيها، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١].

قالت عائشة: يا رسول الله أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجلّ؟ فقال لها: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عزَّ وجلّ»(١).

وفي وصف العذاب بالغرام، إشارة إلى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع، وهو الشأن في عذاب الكافر.

وفي وصف جهنم بأنها المقر السيِّئ والمقام البئيس، لبيان أنها مصير العصاة من المؤمنين والعتاة من الكافرين.

الخامس ـ ترك الإسراف والتقتير في الإنفاق:

إن الإسلام دين العدل والوسطية في جميع شؤون الحياة، والمسلم يلتزم

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير: ٥/ ٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الخلق الوسط فكلا طرفي الأخلاق ذميم، وهو التوجيه الرباني لرسوله الكريم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإذا علمنا أن ذاك التوجيه جاء بعد النهي عن منع الحقوق الواجبة، علمنا أن الاعتدال في الإنفاق يكون في الأمور الخاصة بالاستمتاع والشهوة. ولا يسمى الإنفاق في الخير سرفاً (فلا سرف في الخير)، جاء ذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٦ ـ ٢٧].

وصف أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، بل كانوا يأكلون ما يسد الجوعة، ويعين على العبادة، ويلبسون ما يستر العورة، ويكنّ من الحر والقر، قال عمر رضي الله عنه: كفى سرفاً أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله(١).

قيل لأحدهم: ما البناء الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر، فقيل: فما الطعام الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سد الجوعة، فقيل له: في اللباس، قال: ما ستر عورتك ووقاك من البرد.

السادس ـ البعد عن الشرك:

قد يستغرب المتدبر للآيات الكريمة المشتملة على صفات عباد الرحمن نفي الشرك عنهم ونفي القتل، ونزاهتهم عن الزنى، بعد ذكر تحليهم تلك الخصال العظيمة، من التواضع والحلم، وقيام الليل، والوجل من الله، والعدالة في الإنفاق، فما الحكمة في ذكر هذه القبائح العظيمة في هذا السياق؟.

أجاب بعضهم: أن الحكمة التعريض بما كان عليه أعداؤهم من الكفار، فكأنه قيل لهم: والذين طهرهم الله تعالى وبرأهم مما أنتم عليه معشر الكفار من الإشراك، وقتل النفس المحرمة كالموءودة والزنا.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره: ٢/ ٧١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وسواء أدركنا الحكمة من ذكر هذه الخصال الذميمة في السياق أو لم ندرك، فإن التذكير بالابتعاد عنها من الأمور الهامة جداً.

فإن الإشراك بالله من أكبر الكبائر، كما نص عليه حديث رسول الله ﷺ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك»(١). لذا جاءت النصوص الصريحة الواضحة، أن الذنوب كلها تحت مشيئة الله تعالى وإن لم يتب منها المذنب، إن شاء غفرها وتجاوز عنها، وإن شاء عاقب عليها، إلا الشرك فلا تجاوز عن المشرك، يقول عزَّ من قائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

السابع ـ اجتناب القتل:

لقد حرم الإسلام قتل النفس المعصومة إلا في حالات تستحق النفس فيها القتل، لأنها ارتكبت من الجرائر ما أزال عصمتها، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هذه الحالات التي تهدر فيها النفس فتستحق القتل، بقوله: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٢).

قال بعض العلماء: إن الشرك والقتل والزنى كلها صور للقتل، فالشرك قتل للنفس بتخليدها في النار، وإذا ارتد المسلم فأشرك استحق القتل حداً، وقتل الغير قتل جلي. والنوع الثالث من القتل هو القتل الخفي بتضييع نسب الولد بالزنى.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات: ٨/ ٣٤؛ ومسلم، باب كون الشرك أقبح الذنوب: ١/ ٦٣؛ والترمذي، كتاب التفسير: ٥/ ١٧.

(٢) رواه الشيخان: انظر صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾: ٨/ ٣٨؛ وصحيح مسلم، باب ما يباح به دم المسلم: ٥/ ١٠٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الثامن ـ النزاهة عن الزنى:

إن الإسلام نظّم الغرائز لدى الفرد فلم يطلق العنان لإشباعها، كما لم يحاربها ويكبتها لأن لها دوراً وظيفياً ينبغي أن تؤديه، وعلى رأس هذه الغرائز غريزة الجنس وحب البقاء.

إن الإسلام يهدف إلى تربية مجتمع متماسك سليم من الآفات الاجتماعية، نظيفاً من اختلاط الأنساب متماسك اللبنات، فشرع الإسلام شرائعه لحماية الكليات الخمس:

الدين، العقل، العرض، النفس، المال.

فأقام صرح المجتمع الإسلامي على اللبنة الأولى (الأسرة). ووضع لها من التشريعات ولأفرادها من الحقوق والواجبات ما يجعلها نقية صافية من الشوائب، ووضع سياجاً من التشريعات للحفاظ على قدسية العلاقة الزوجية وسمى عقد الزوجية ميثاقاً غليظاً. ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١].

لذا سنَّ العقوبات الشديدة على من يحاول التعرض للحياة الزوجية بسوء، فمن قال فيها مقالة سوء باتهام غيره بالزنى طالبه الإسلام بإحضار أربعة شهود على ما قال، وإلا فضرب بالسياط على ظهره، ووعيد بالعذاب الأخروي على جنايته ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

ومن تجنى بتجاوز الحد والوقوع في الفاحشة، فإن كان بكراً جلد مئة جلدة، وإن كان محصناً فرجمه بالحجارة إلى الموت.

يقول عزَّ من قائل: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور: ٢].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحسب نظرة الإسلام الواقعية لشؤون الحياة وحل المشكلات الإنسانية على ضوء المصلحة العليا للمجتمع، سن الإسلام موضوع الملاعنة بين الزوجين حيث يتهم الزوج زوجه بالفاحشة ونظراً لولوجه وخروجه في كل وقت وليس من المكنة إحضار الشهود في مثل هذه الأحوال، لم يأمره الإسلام أن يسكت على التي خانته في أعزِّ ما يملك في عرضه وشرفه، فأجاز أن يشهد أربع شهادات بالله أنه رآها في حالة الفاحشة وإنه صادق فيما يقول، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان كاذباً في دعواه.

كما أن العدل الرباني لم يحرم المرأة من الدفاع عن عرضها وشرفها، وربما كان الزوج مفترياً عليها يريد الوقيعة بها، فأتاح لها الفرصة أن تبرز براءتها من خلال أربع شهادات بالله إنه كاذب في دعواه، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان صادقاً.

وبما أنَّ العلاقة الزوجية مبنية على المودة والرحمة والثقة المتبادلة بين الزوجين، لتكون سكناً له ويكون لها راعياً مؤتمناً، وقد انثلم كل ذلك بهذه الاتهامات والملاعنات، فكانت الخطوة المنطقية التفريق بينهما فرقة بائنة لالقاء بعدها بينهما.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦ ـ ٩].

إن جريمة الزنى جريمة مدمرة، وما فشا هذا الوباء في مجتمع إلا وتفشت فيه أوبئة مادية وخلقية أخرى، فكان مصير المجتمع الدمار والهلاك.

فوائد منوعة:

١ ـ فوائد بيانية:

دلّت الأساليب البيانية على ضخامة الآثام الثلاثة (الشرك، القتل، الزنى)

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حيث جاءت في الآيات الكريمة أساليب بلاغية تبرز هذا الجانب منها:

أ ـ الاعتراض بين المبتدأ (وعباد الرحمن) وما عطف عليه، وبين الخبر الذي هو ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا...﴾ [الفرقان: ٧٥] على رأي بعض العلماء، بذكر جزاء هذه الأشياء الثلاثة خاصة، فدل على مزيد اهتمام بشأنها.

ب ـ الإشارة بأداة البعد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ٦٨] مع قرب المذكورات فدل على أن البعد في رتبتها.

جـ ـ التعبير باللقي مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ فهو أبلغ من: يأثم، أو يلق إثماً، أو جزاء إثمه.

د ـ التقييد بالمضاعفة في قوله: ﴿يُضَاعَفْ﴾ ومضاعفة العذاب ـ والله أعلم ـ إتيان بعضه في إثر بعض بلا انقطاع كما كان يضاعف سيئته كذلك.

هـ ـ التهويل بقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الذي هو أهول من غيره بما لا يقاس.

و ـ الإخبار بالخلود الذي أول درجاته أن يكون مكثاً طويلاً.

ز ـ التصريح بقوله: ﴿مُهَانًا﴾ إشارة إلى أن العذاب مضرة خالصة مقرونة بالإذلال والإهانة، وذلك ليجتمع على الجاني العذاب الجسماني والروحاني. احترازاً عما يظن أن بعض عصاة هذه الأمة الذين يريد الله تعذيبهم يعلمون أنهم ينجون ويدخلون الجنة فتكون إقامتهم مع العلم بالمآل ـ ليست على وجه الإهانة.

هذه سبع مؤكدات جاءت لبيان عظم هذه الذنوب الثلاثة.

٢ ـ فوائد في الجمع بين الآيات:

اختلف العلماء في توبة القاتل العمد، هل تقبل أو لا؟:

ـ ذهب جمهور العلماء إلى أن للقاتل العمد توبة، كما أن لمرتكبي الكبائر عامة توبة، وقد دلَّت النصوص على ذلك فمنها:

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

ومنها ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن أناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية ونزلت: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾[الزمر: ٥٣].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه، فقال: يا رسول الله رجل غدر وفجر، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة؟ فقال النبي ﷺ: «أأسلمت»، فقال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله، فقال النبي ﷺ: «فإن الله غافر لك غدراتك وفجراتك، ومبدّل سيئاتك حسنات ما كنت كذلك»، فقال: يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟ فقال: «وغدراتك وفجراتك»، فولى الرجل يكبر ويهلل. وروى قريباً منه الطبراني عن أبي فروة.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن لا تعارض بين آية الفرقان وهي مكية، وبين آية النساء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]. فإن آية سورة النساء مطلقة، فتحمل على من لم يتب، أما آية سورة الفرقان فإنها مقيدة بالتوبة.

ـ روى الشيخان عن أبي سعيد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمّل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مئة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أي حكماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»، وفي رواية «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»[1].

٣ ـ فوائد في صور لطف الله العزيز اللطيف بعباده يوم القيامة، وأقوال في تبديل السيئات حسنات:

أخرج مسلم في صحيحه: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال: فقال له: عملت يوم كذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكلِّ سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»[2].

ـ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: التبديل في الدنيا، فيبدلهم بالشرك إيماناً وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنى عفة وإحصاناً، فهي بشارة من الله تعالى لهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا ثوابها.

ـ وقال الزجَّاج: السيئة تُمحى بالتوبة وتُكتب الحسنة مع التوبة، والكافر

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: ٤/ ١٤٣ مختصراً؛ ومسلم، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله: ٨/ ١٠٣.

(٢) صحيح مسلم، باب آخر أهل النار خروجاً: ١/ ١٢١؛ ومسند الإمام أحمد: ٥/ ١٠٧. مع اختلاف يسير بين الروايات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات.

ـ وقال سعيد بن المسيب ومكحول: إن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة، واحتجا بما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «ليتمنينّ أقوام أنهم أكثروا من السيئات، قيل: من هم يا رسول الله؟! قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات»(١).

ـ قال القفال والقاضي: إن الله يبدل العقاب بالثواب، فذكرهما وأراد ما يستحق بهما، وإذا حمل على ذلك كانت الإضافة إلى الله حقيقة لأن الإنابة لا يكون إلا من الله تعالى(٢).

والحكمة في تكرار قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١].

أن هذا القول الثاني عمم بعد التخصيص، فالاستثناء جاء في التوبة عن الشرك والقتل والزنى، أما هذا فلبيان حال من تاب من جميع المعاصي ـ والله أعلم.

التاسع ـ التوبة:

من لطف الله بعباده أن فتح لهم طريق الرجوع إلى باريهم، ولم يوئسهم من رحمته مهما عظم الذنب واستمر فيه العاصي، وتوغل في المفاسد، وفي التمرد على خالقه ورازقه.

«لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من رجل كان في سفر في فلاة من الأرض، نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فأوى إلى ظل شجرة، فوضع رأسه فنام نومة تحتها، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، فأتى شرفاً فصعد عليه فلم ير شيئاً، ثم أتى آخر فأشرف فلم ير شيئاً، حتى اشتد عليه

---

(١) انظر الدر المنثور: ٦/ ٢٨١ وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أورد الرازي هذه الأقوال في تفسيره الكبير: ٢٤/ ١١٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، رفع رأسه فإذا راحلته قائمة عنده، تجر خطامها، عليها زاده طعامه وشرابه، فأخذ بخطامها فالله أشد فرحاً بتوبة المؤمن براحلته وزاده»[1].

العاشر ـ تجنب الكذب (الترفع عن حضور مجالس الزور واللغو):

إن من أشد أنواع الكذب: الزور، فأثر هذه الجريمة مضاعف، لأن الأصل في الشهادة أن تكون عوناً لإبراز الحق وإيصاله إلى صاحبه، فإذا حرّف الشهادة ومال بها عن حقيقتها يكون قد عطل الشهادة عن أداء دورها، والثانية يكون قد ساهم في إلحاق الظلم بآخرين وتمكين أهل الباطل من تحقيق مآربهم.

لذلك قرن الزور بالشرك في أكثر من نص في القرآن الكريم وفي السنّة النبوية:

كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

روى أبو داود وابن ماجه عن خريم بن فاتك، قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف ـ أي من صلاته ـ قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله» ثلاث مرات، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١][2]

وفي حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي بكرة أضاف إلى الإثمين العظيمين إثماً ثالثاً وهو عقوق الوالدين ـ حيث قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس

---

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري، كتاب الدعوات: ٧/ ١٤٦؛ وصحيح مسلم، باب في الحض على التوبة والفرح بها: ٨/ ٩٢.

(٢) انظر سنن أبي داود، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور: ٥/ ٢١٧؛ وسنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور: ٢/ ٧٩٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[1].

ولئن كان الذهن ينصرف أول ما يسمع الزور إلى شهادة الزور، فإن إطلاق الزور في الآيات الكريمة تعم كل أصنافه، ولذلك قال بعض المفسِّرين: الزور يعم كل باطل عن جهة الحق. فكأن الآية الكريمة نصت في وصف عباد الرحمن أنهم لا يشهدون مجالس الباطل، ولعلَّ ذكر مرورهم كراماً على اللغو يؤيد هذا التعميم، فإن المؤمن يكرم نفسه عن مجالس اللهو والباطل، وينزهها عن مشاركة السفهاء في لغوهم، يقول عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ولربما فوجئ المرء بمجلس انقلب أهله إلى الخوض في الباطل، أو تناول قضايا إسلامية بالاستهزاء والتطاول، أو الاستهتار بأحكام الشرع، أو النيل من شخص الرسول ﷺ، أو الحط من أقدار صحابته الكرام أو اتهام دعاة الإسلام بالقدح والتجريح فكلّ ذلك ينبغي الإعراض عنه، ومغادرة المجلس ومقاطعته إن لم يستطع تغيير مجرى الحديث، يقول جلَّ جلاله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]. إن المؤمن يرى في الوقت رأس ماله الذي إذا فات لا يعوض، فالوقت الحياة، إنه يضنّ به أن يقضيه فيما لا فائدة فيه، ومجالس اللغو أقل ما يقال فيها: إنها للثرثرة والعبث وضياع الوقت والغفلة، لذا كان من شأن المؤمنين عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] مترفعين عنها.

الحادي عشر ـ قبول المواعظ:

إن من صفات المؤمنين عباد الرحمن أخذ العظة والعبرة من كلِّ شيء، وعلى رأس ما يتعظ به آيات الله المنزلة على رسوله ﷺ، فإذا سمع آيات الذكر

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور: ٣/ ١٥٢؛ وصحيح مسلم، باب الكبائر وأكبرها: ١/ ٦٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحكيم تتلى، أو كان على وضع فيه عليه ملحظ فذكّره أحد الناصحين بآيات من كلام الله، لم يردها عليه بل وعيها وفهم معناها متدبراً لما تهدي إليه، مقارناً حاله على ضوء هداية الآية بما ينبغي أن يكون الحال عليه، ثم عدّل من سلوكه وفعله وقوله. ولم تأخذه العزة بالإثم فيركب رأسه ويرد على ناصحه بما لا يليق. فكم من مخطئ أو متساهل في زماننا عندما يقال له: يا فلان اتق الله، يرد عليه ويقول بل أنت اتق الله، فأنا على الصواب. قبل أن يتدبر عمله ويفكر في كلمة (اتق الله) لقد خاطب الله جلّ جلاله رسولَه ﷺ المعصوم الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

كما أن آيات ربهم تشمل الآيات الكونية، التي يستدل من خلال مراقبتها ودراسة أوضاعها وهيئاتها على النظام التام الذي يسود أجزاءه ومجراته وأفلاكه ونجومه وكواكبه. ويستدل من خلال ذلك على الخالق الذي أبدع هذا الكون، وأنه الواحد الذي يتولى شؤونه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

إن الكافر كالبهيمة تعلف ما يقدم لها من غير بحث عن المصدر الذي زودها به، ومن غير تدبر للمنعم الذي هيأ له أسباب الرزق ومكنه منه، ولا يلتفت إلى ما حوله إلا بما يتعلق بشهوتي الفرج والبطن، فهو أصم أعمى عن هدايات تلك الآيات ما كان منها وحياً وما كان آية مرئية أو مسموعة مما يحيط به من حوله.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

إن شأن المؤمن شأن أنبياء الله ورسله الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

الثاني عشر ـ الابتهال إلى الله تعالى:

من الصفات الحميدة بل من أصول العبادة الابتهال إلى الله تعالى بالدعاء والالتجاء إليه في كل شيء، فالدعاء مخ العبادة، ولئن كان الدعاء مرغوباً فيه في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شؤون الحياة الدنيا ما قل منه وما كثر، وما دق منه وجلّ. وما عز منه أو توفر، فإن الدعاء لأمور الآخرة أهم وأعظم، ولئن كانت القضايا التي تجمع بين زينة الحياة الدنيا وبين أجر الآخرة تكون في مقام رفيع لدى الإنسان، فإن على رأس كل ذلك الذرية الصالحة فبها تقر الأعين في الحياة الدنيا وهي استمرار لعمل المرء بعد مماته وانقطاع عمله.

ففي الذرية الصالحة حياة مديدة للآباء والأمهات، وعمل صالح مستمر، كما يقول رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية»[1].

فكيف إذا رزق الإنسان بولد صالح، فعلّمه علوم الإسلام وهيأه لنشر العلم والدعوة إليه.

لذا كان من دعوة الأنبياء أن لا يذرهم فرادى من غير ذرية ترثهم في علومهم وآدابهم.

فلا غرو أن تكون دعوة عباد الرحمن منصبة على هذه الوراثة الربانية ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]

إنهم ـ كما يقول عكرمة ـ لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً وإنما أرادوا أن يكونوا مطيعين، ولا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً أو أخاً أو حميماً مطيعاً لله.

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله ﷺ، لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً. ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبه الله عنه، لا يدري، لو شهده كيف يكون فيه والله لقد حضر

---

(١) رواه مسلم، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته: ٥/ ٧٣.

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم، مصدقين بما جاء به نبيكم، قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشر حال بعث عليها نبياً من الأنبياء، في فترة جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، إن كان الرجل يرى والده وولده وأخاه كافراً، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها للتي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤][1].

والرياسة في الدين مرغوب فيها بموجب هذه الآية الكريمة، فدعاء عباد الرحمن لم يقتصر على طلب الذرية الصالحة التي تخلفه من بعده وتستمر حياته من خلالهم، بل يدعون أن يكونوا هم وذرياتهم أئمة في الدين يقتدى بهم، هداة مهتدين يتعدى نفعهم وخيرهم إلى غيرهم من الناس.

لذا كان دعاء خليل الرحمن لربه ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤].

هذه صفات عباد الرحمن وأخلاقهم التي وعدهم ربهم عليها الدرجات الرفيعة في الجنة، بسبب صبرهم على ما لاقوه في سبيل تمسكهم بتلك المبادئ وتحليهم بتلك الخصال، فكلّ من التزم مبدأ وثبت على منهج، لا بد أن يلقى في سبيل ذلك أذى ممن لا يلتزم ولا يسلك منهجه. لذلك لم يذكر الله سبحانه وتعالى المصبور عنه ليعم كل نوع من أنواع الصبر.

وفي تلك الغرف العالية يكرمون بالدعاء لهم بالتعمير والحياة الدائمة والدعاء بالسلامة، وكلتا الدعوتين ترجعان إلى نعيم الجنة الباقي الذي لا ينقطع، والذي خلص من شوائب الضرر والكدورات.

---

(١) المسند: ٦/ ٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا ما قاله بعض المفسرين على أن التحية والسلام تلقى عليهم من الملائكة، ولعله أرفع لشأن عباد الرحمن وأكرم لقدرهم أن تكون التحية والسلام من الله جلَّ جلاله، يتوج بها النعيم المقيم الذي يتقلبون فيه في غرف الجنة كما صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

والأمن من زوال النعمة عنهم أو زوالهم عنها، أو انقطاعها أمر أساسي لإدخال الطمأنينة إلى قلوبهم كما تقدم في السياق في هذه السورة: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥ ـ ١٦]. فالجنة خالدة بنعيمها عليهم، وهم خالدون فيها لا يزولون عنها. وهذا منتهى إدخال الأمن والطمأنينة إلى القلوب[1].

إن المسكن الدنيوي والإقامة المرفهة مهما كانت متكاملة المرافق واسعة الأرجاء محققة لرغبات ساكنها، فكونها معرضة لآفات التقادم والتآكل والخراب والزوال لا تجعل ساكنها قرير العين بها، أما جنات الخلد فحسنت مستقراً ومقاماً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

إن الذي لا يرفع لهدايات القرآن رأساً ولا يلقي لها بالاً هو أهون عند الله من أن يجعل له وزناً ومقداراً، وأن يكترث ببقائه أو هلاكه، فلولا التجاؤهم إلى الله في الشدائد، ولولا أن الله قطع على نفسه بإرجاء عقوبتهم إلى الآخرة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

لولا ذلك لأنزل عليهم عذاب الاستئصال ولا يبالي بشأنهم ولا يعبأ بهم، لقد استحقوه بأفعالهم وأقوالهم التي تؤدي بهم إلى البوار.

مناسبة الخاتمة لمحور السورة:

قلنا: إن خاتمة السورة التي اشتملت على صفات عباد الرحمن بمثابة

---

(١) انظر ما تقدم حول هذه النقطة، ص٩٤ من الكتاب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النتيجة لمحور السورة، فالمحور اشتمل على المعجزة ـ القرآن الكريم ـ والرسول ﷺ الذي أنزلت عليه المعجزة.

فالمعجزة الرسالة وضعت المنهج الرباني الذي دعا إليه الرسول ﷺ في العقائد والسلوك والتعامل مع الآخرين.

والرسول ﷺ طبّق هذا المنهج في حياته العملية فكان النموذج العملي لهذا المنهج الرباني. ودعا القوم إلى الالتزام به وناضل في سبيل ذلك ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

ومن خلال ذلك جاءت افتراءات القوم على المعجزة (القرآن) وعلى شخص الرسول ﷺ وبالتالي جاء الدفاع عن المعجزة وعن صاحبها، ورد تلك الافتراءات.

وختم السورة بذكر صفات عباد الرحمن فيه أكثر من دلالة، منها:

ـ سلامة المنهج وتصديق الرسول ﷺ في دعوته، حيث أدى صبره ودعوته إلى الالتزام بهدايات الرسالة إلى هذه الفئة المؤمنة الربانية. والوصف يشمل المؤمنين إلى يوم القيامة ويدخل فيهم صحابة رسول الله ﷺ دخولاً أولياً.

ـ إن هذه الصفوة من البشرية هي التي يعبأ بها الرحمن جلَّ جلاله، ولولا وجودهم لكان لزاماً أن ينزل عقوبته بأهل الأرض ولا يبالي بهم ولا يكترث لوجودهم.

ـ وفي الخاتمة تسرية وتسلية لرسول الله ﷺ، فمن يتوقع أن تثمر جهوده مثل هذه الثمار اليانعة وهذا النتاج الطيِّب الكريم يصبر على ما يعترض سبيله من عقبات وأشواك ويبذل المزيد من الجهد للوصول إلى النتائج الطيبة.

* * *

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خاتمة البحث

كانت هذه الجولات مع سورة الفرقان في آفاقها ومجالاتها.

- إن الفرقان رسالة السماء إلى أهل الأرض لرسم منهج الحياة.

- والفرقان معجزة الله التي زوّد بها رسوله محمداً ﷺ لتكون دليل صدقه أنه مرسل من خالق السماوات والأرض.

- والفرقان سلاح رسول الله ﷺ لمقارعة المعاندين المتكبرين، وسلاح من بعده من المؤمنين برسالته إلى يوم القيامة، لإقامة الحجة ورسم المنهج القويم والهداية إلى الصراط المستقيم تجاه كل دعوة باطلة، وعلى كل مارق متمرد على دعوة الحق.

- والفرقان ينبوع العلوم والمعارف المادية والمعنوية حيث يرتقي بفكر المؤمنين به إلى ملكوت السماوات والأرض وإلى خلجات النفس الإنسانية، ويطلعه على سنن الله في المجتمعات ما باد منها وما كانت ظاهرة على وجه الأرض، ويرسم الطريق الأقوم لأجيال المستقبل.

- لقد أذهل الفرقان العرب الفصحاء بأساليبه البيانية الرائعة، ففعلت في نفوسهم فعل السحر الحلال: إن من البيان لسحراً.

- ولقد أفحم أساطين الفكر والفلسفة بحججه الباهرة وبراهينه الساطعة القاهرة فرضخوا قانعين مبهوتين لأدلته الدامغة.

- ولقد كشف الفرقان عن غيوب الماضي في سير الأمم وأبرز سبب شقائها عندما اتبعت أهواءها، ولم تذعن لنداءات الرسل المبشرين المنذرين.

- ولقد أماط الفرقان اللثام عن بعض أسرار الكون في الظل والشمس،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والليل والنهار، والرياح والمطر، والحجر بين البحر العذب الفرات وبين البحر الملح الأجاج، وأصل التكوين البشري من الماء، والرحم الذي يربط بين النسب والصهر.

إن الذي يدرك جانباً من هذه الأسرار الكونية التي لم يكن للإنسان عهد ولا علم بها وقت نزوله يعلم صدق محمد ﷺ، إنه لدليل على أن الذي أنزل الفرقان هو الذي خلق فيه تلك الأسرار: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

- إنه الفرقان المعجز الذي تحدى الإنس والجن فأفحم.
- إنه الفرقان المنهج الرباني الذي أثمر عباد الرحمن بصفائهم ورفعتهم وشفافيتهم الذين وعدهم ربهم الرحمن غرف الجنة العالية في الآخرة، وجعلهم حجته البالغة على خلقه في الدار الدنيا، وجعلهم محط رعايته وعنايته، ولولاهم لأنزل غضبه وعذابه على أهل الأرض.

وهكذا ينتهي الحديث عن مضامين سورة الفرقان حسب طاقتنا البشرية القاصرة، ولا ينتهي أسرار السورة العظيمة، وكيف تنتهي أسرارها وهي تتحدث عن معجزة الرسالة الخاتمة، وتؤيد النبي الخاتم ﷺ وتصدقه في دعوته العالم إلى الهداية والرشاد.

اللهمَّ اهدنا إلى أقوم السبل لفهم كتابك.

اللهمَّ اهدنا إلى الصراط المستقيم في اتباع منهج رسولك.

اللهمَّ اجعل كتابك حجة لنا لا حجة علينا.

اللهمَّ ارزقنا تلاوته وتدبره آناء الليل وأطراف النهار.

اللهمَّ وفقنا للعمل به، وجنبنا الزلل في تأويله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفهارس العامّة

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

٣ ـ فهرس الأعلام

٤ ـ فهرس المراجع

٥ ـ فهرس الموضوعات

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

١ ـ فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾	٢٣	٦٣، ٧٠
ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ . . لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾	٥٥ ـ ٥٦	١٠٢
ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾	٦٧	١٣
ـ ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾	٦٨	١٣
ـ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا﴾	٦٩	١٤
ـ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ . . . يَفْعَلُونَ﴾	٧٠ ـ ٧١	١٤
ـ ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾	١٢٩	١٤
ـ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٢	١٥
ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . . . يَعْقِلُونَ﴾	١٦٣ ـ ١٦٤	١٣١
ـ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ﴾	١٦٤	١٤٥
ـ ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ . . . مِنَ النَّارِ﴾	١٦٥ ـ ١٦٧	٩٥
ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ . . . لَا يَعْقِلُونَ﴾	١٧٠ ـ ١٧١	١٢٨
ـ ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا﴾	١٨٩	١٣٧
ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾	٢٤٧	٨٤
سورة آل عمران		
ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾	١٠٢	٥
ـ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾	٣	٧٢ح

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سورة النساء

ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾	١	٥
ـ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾	٢	١٦
ـ ﴿ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ﴾	٧	١٦
ـ ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾	١٤	٣٢
ـ ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ ﴾	٢١	١٨٢
ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾	٥٩	٣٢
ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا . . . وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾	٦٤ ـ ٦٥	٣٢
ـ ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾	٦٩	٣٢
ـ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾	٧٨	١٦٨ح
ـ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا ﴾	٩٣	٥٨، ١٨٤
ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾	١١٦	١٨٠، ١٨٤
ـ ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ ﴾	١٢٢	٩٤

سورة المائدة

ـ ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ﴾	١	١٧
ـ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾	٣	١٧
ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾	٤	١٧
ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾	٥	١٧
ـ ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ ﴾	٢٧	١٧
ـ ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾	٤٢	١٧
ـ ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ ﴾	٦٦	١٧
ـ ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾	٧٥	١٧

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ ﴾	٨٧	١٧
ـ ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا ﴾	٨٨	١٧
ـ ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ ﴾	٨٩	١٧
ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ ﴾	٩٠	١٧
ـ ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾	٩٣	١٧
ـ ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ ﴾	٩٦	١٧
ـ ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ ﴾	١٠٠	١٧
ـ ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ ﴾	١٠٣	١٨
ـ ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ ﴾	١١٤	١٦
ـ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ ﴾	١١٥	٨٣ـ٨٤
ـ ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ . . . شَهِيدٞ ﴾	١١٦ـ١١٧	٩٦

سورة الأنعام

ـ ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم ﴾	٦	١٢٢
ـ ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ . . . مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾	٨ـ٩	٨١
ـ ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ . . . أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾	٣١ـ٣٢	٢٥
ـ ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ ﴾	٤٦	١٥١
ـ ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ . . . بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾	٥٢ـ٥٣	١٠١
ـ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ ﴾	٦٥	١٥١
ـ ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ ﴾	٦٨	١٨٩
ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ . . . ٱلۡخَبِيرُ ﴾	٩٥ـ١٠٣	٢١
ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾	١٠٥	١٥١
ـ ﴿ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ . . . تَتَّقُونَ ﴾	١٥١ـ١٥٣	٣٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ١٦٤ ٣٧

سورة الأعراف

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا ﴾ ٥٧ ٢٣
- ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ ٥٨ ١٥١
- ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ ١٤٣ ١٠٢
- ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ١٨٠ ١٦٩
- ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ ١٨٤ ٨٦
- ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٨٨ ٢٨
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ . . . فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ١٩٤ ـ ١٩٥ ٧٣

سورة الأنفال

- ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ ٣٣ ٧٩، ١٠٢، ١٩٢

سورة التوبة

- ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ . . ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ١٢٨ ـ ١٢٩ ١٠٩

سورة يونس

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ ٥ ١٧١
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . . . ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ١٥ ـ ١٧ ٢٨
- ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ٩٩ ١٦٥
- ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ١٠١ ١٣٤

سورة هود

- ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ ١٢ ٨٤ح
- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ . . . أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ١٣ ـ ١٤ ٧٧

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ . . . كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾	١٥ـ١٦	١٣٩
ـ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ . . . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾	٢٩ ـ ٣٠	١٠١
ـ ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾	٤٩	١٢٣
ـ ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾	٦٢	٨٥

سورة الرعد

ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾	٣	١٣٦
ـ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾	٧	٢٨
ـ ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾	٣٠	١٦٨

سورة إبراهيم

ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾	٤	٢٧
ـ ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا . . . عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٢١ ـ ٢٢	١٠٦
ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾	٣٢	١٥٦
ـ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ . . . وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾	٤٢ ـ ٤٣	١٠٠

سورة الحجر

ـ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾	٢٢	١٣٩، ١٤٥
ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ . . . ٱلسَّمُومِ﴾	٢٦ ـ ٢٧	١٦٠ح
ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا . . . ٱلْيَقِينُ﴾	٨٧ ـ ٩٩	١١١
ـ ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾	٨٩	٢٨

سورة النحل

ـ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾	٣٦	٢٦
ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾	٤٣	٢٧

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾	٤٤	٢٨
ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ . . . مَا تَفْعَلُونَ﴾	٩٠ ـ ٩١	٢٩
ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ . . . هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾	١٠٣ ـ ١٠٥	٧٨

سورة الإسراء

ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾	١	٦٣
ـ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾	١٥	٢٦
ـ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ . . . وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾	١٨ ـ ٢١	١٣٨، ١٦٨
ـ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ . . . كَفُورًا﴾	٢٦ ـ ٢٧	١٧٩
ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾	٢٩	١٧٩
ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾	٤١	١٤٩
ـ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾	٤٤	١٢٧
ـ ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ . . . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾	٤٧ ـ ٤٨	٨٥
ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا . . . لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾	٤٩ ـ ٥٢	٢٤
ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾	٥٧	٩٥، ٩٦
ـ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ . . . مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾	٧٨ ـ ٧٩	١٧٨ ـ ١٧٩
ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾	٨٩	١٥٠
ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ . . . رَسُولًا﴾	٩٤ ـ ٩٥	٢٧، ٨٢
ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ . . . سَعِيرًا﴾	٩٤ ـ ٩٧	١١٦، ١١٧
ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا . . . إِلَّا كُفُورًا﴾	٩٨ ـ ٩٩	٢٤
ـ ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ﴾	١٠١	٨٥
ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾	١٠٥	١٦٦
ـ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾	١٠٦	٧٢ح
ـ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾	١١٠	١٦٩

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سورة الكهف

ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾	١	٦٩
ـ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾	٦	١٠٨، ١٦٥
ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ ﴾	١٩	٢٥
ـ ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ ﴾	٢٥	٢٥
ـ ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾	٢٨	١٠١
ـ ﴿ قَالَ لَهُۥ صَٰحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ ﴾	٣٧	١٦١ح، ١٧٧
ـ ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ﴾	٥٢	٩٦ـ٩٧
ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾	٥٤	١٥١
ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾	٨٦	١٣٦
ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾	١٠٨	١٩٣

سورة مريم

ـ ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ . . . وَبُكِيًّا ۩ ﴾	٥٨	١٩٠
ـ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ . . . لَهُۥ سَمِيًّا ﴾	٦٤ـ٦٥	١١٣
ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ . . . جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾	٦٦ـ٦٨	٢٤
ـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ . . . لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾	٨٨ـ٩١	٤٩

سورة طه

ـ ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ ﴾	٤٦	٥٠
ـ ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾	٥٥	٨٢، ١٧٧
ـ ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾	٧٠	٥٠
ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾	١١٣	١٥١
ـ ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾	١٢٠	٩٤

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سورة الأنبياء

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾	٣	٨٠
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾	١٨	١١٥
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾	٢٢	١٩٠
﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ . . . كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾	٣٠	١٣٣، ١٣٩، ١٤٦، ١٥٩
﴿إِنَّكُمْ . . . لَا يَسْمَعُونَ﴾	٩٨ـ١٠٠	٢٠

سورة الحج

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ . . . مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾	٣٠ـ٣١	١٩، ١٨٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾	٧٣	٢٠

سورة المؤمنون

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا . . . أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾	١٢ـ١٤	١٣٣
﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾	١٨	١٤٧
﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾	٢٤	٨٠، ١٢٠
﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	٣٣ـ٣٨	٨٤
﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ . . . لَهَا سَٰبِقُونَ﴾	٦٠ـ٦١	١٧٨
﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ . . . كَٰرِهُونَ﴾	٦٣ـ٧٠	٨٦ح
﴿أَفَحَسِبْتُمْ . . . ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾	١١٥ـ١١٦	٢٤، ٢٥

سورة النور

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ﴾	٢	١٨١
﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾	٤	١٨١
﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ . . . مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾	٦ـ٩	١٨٢

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾	٤٣	١٤٥
ـ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	٥٤	١٦٥
ـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ . . . شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	٦٢ـ٦٤	٦١
ـ ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾	٦٣	٦١، ٦٣
ـ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾	٦٤	٦١، ٦٤

سورة الشعراء

ـ ﴿طسم . . لَهَا خَاضِعِينَ﴾	١ـ٤	١٠٩
ـ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ . . . رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾	٦٩ـ٧٧	٢٠
ـ ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾	٨٤	١٩٢
ـ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾	١٥٣	٨٥
ـ ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾	١٥٤	٨٣
ـ ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ . . . يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	١٥٥ـ١٥٦	٨٣
ـ ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾	١٨٦	٨٠
ـ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا﴾	٢٠٨	٢٦

سورة النمل

ـ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ . . . صَادِقِينَ﴾	٥٩ـ٦٤	٢١ـ٢٢
ـ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ . . . أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾	٦٠ـ٦٥	١٣١
ـ ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾	٦١	١٣٦
ـ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾	٦١	١٥٥

سورة القصص

ـ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم﴾	٤٦	٢٨

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ . . . ٱلْجَٰهِلِينَ﴾	٥٤ ـ ٥٥	١٧٧
ـ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾	٥٥	١٨٨
ـ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾	٥٦	١٦٤
ـ ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾	٥٧	٩٧
ـ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ . . . تَشْكُرُونَ﴾	٧٠ ـ ٧٣	١٤١
ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن . . . تَشْكُرُونَ﴾	٧١ ـ ٧٣	١٤٤

سورة العنكبوت

ـ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٠	١٣٤
ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا﴾	٦٧	٩٧

سورة الروم

ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ . . . وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾	١٦ ـ ١٩	٢٥
ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾	٢٧	٢٣
ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾	٤٨	١٤٥

سورة لقمان

ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى . . . بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	٦ ـ ٧	١٠٩

سورة السجدة

ـ ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	٥	١٦٧ح

سورة الأحزاب

ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾	١	١٨٩
ـ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾	٣٦	٣٢
ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾	٧٠	٥

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	٧٢	٢٦

سورة سبأ

ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾	٢٨	٢٨
ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ . . . بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾	٤٠ ـ ٤٢	٩٦
ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . . . عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾	٤٣ ـ ٤٦	٨٧ ـ ٨٨
ـ ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾	٤٦	٢٨

سورة فاطر

ـ ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾	٨	١٠٨
ـ ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾	٩	٢٣
ـ ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾	٢٤	٢٦

سورة يس

ـ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ﴾	٣٨	١٤٢ح
ـ ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾	٥٨	١٩٢
ـ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ . . عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	٦٩ ـ ٧٠	٨٧
ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا . . أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾	٧١ ـ ٧٣	١٣٢
ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ . . . وَهِىَ رَمِيمٌ﴾	٧٧ ـ ٧٨	١٦٠ح
ـ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾	٧٩	٢٤
ـ ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾	٨١	٢٤
ـ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾	٨٢	٢٤

سورة الصافات

ـ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾	١١	١٦٠ح
ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً . . . أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾	١٤ ـ ١٧	٨٨

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ . . . وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾	٣٥ـ٣٧	٨٧
ـ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ . . . أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	١٣٧ـ١٣٨	١٢٢
ـ ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ . . . ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾	١٥٨ـ١٦٦	٩٦
ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ . . . لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾	١٧١ـ١٧٣	٢٩

سورة صٓ

ـ ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾	٥	١٢٥
ـ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ . . . لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾	٧١ـ٧٢	٨٢

سورة الزمر

ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ . . . ٱلصُّدُورِ﴾	٥ـ٧	١٣٢
ـ ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾	٦	١٣٤، ١٤٠
ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ . . . يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾	١٥ـ١٦	٢٥
ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾	٤٢	١٤٣
ـ ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾	٥٣	١٨٤

سورة غافر

ـ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾	٢٦	١٢٦
ـ ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾	٢٩	١٢٦
ـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾	٥١	١٠٠
ـ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	٥٧	٢٤

سورة فصلت

ـ ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ . . . ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٩ـ١٢	١٦٦ـ١٦٧

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا . . . تَغْلِبُونَ﴾	٢٥ ـ ٢٦	١٠٦
ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟﴾	٢٦	١٠٩
ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا﴾	٢٩	٩٧
ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ﴾	٣٩	٢٣

سورة الشورى

ـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾	١١	١٦٨
ـ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾	٤٨	١٠٩، ١٦٤

سورة الزخرف

ـ ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾	١١	٢٣
ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾	٣١	٨٤، ١٢٧
ـ ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن . . . مُشْتَرِكُونَ﴾	٣٦ ـ ٣٩	١٠٥
ـ ﴿ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ . . . مُقْتَرِنِينَ﴾	٥١ ـ ٥٣	١٢٦
ـ ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ﴾	٦٧	١٠٥

سورة الجاثية

ـ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ . . . عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾	٧ ـ ٩	١٠٩

سورة الأحقاف

ـ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾	٢٧	١٥٠
ـ ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾	٣٥	١٠٠

سورة الفتح

ـ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾	٢٩	٥١

سورة الحجرات

ـ ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾	٧	٣٢
ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾	١٣	١٦١

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سورة قَ

ـ ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾	٢٧	١٠٦

سورة الذاريات

ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ . . يَسْتَغْفِرُونَ﴾	١٥ ـ ١٨	١٧٧
ـ ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى . . . قَوْمٌ طَاغُونَ﴾	٥٢ ـ ٥٣	٨٥
ـ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ . . . ٱلْمَتِينُ﴾	٥٦ ـ ٥٨	٢٦، ٨١

سورة الطور

ـ ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ . . . طَاغُونَ﴾	٢٩ ـ ٣٢	٨٦
ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ . . . ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾	٣٠ ـ ٣١	٥٩

سورة النجم

ـ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾	١٠	٦٣، ٦٩
ـ ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾	٢٣	١٩

سورة القمر

ـ ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾	٢٤	٨٠

سورة الرحمن

ـ ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ . . . مِن نَّارٍ﴾	١٤ ـ ١٥	١٦٠ح
ـ ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ . . . تُكَذِّبَانِ﴾	١٩ ـ ٢٣	١٥٥

سورة الواقعة

ـ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . . . فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾	٥٨ ـ ٦٢	١٦١

سورة الحديد

ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾	٩	٦٩

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سورة الحشر

ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾	١٨	٥
ـ ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾	١٩	١٦٢

سورة الممتحنة

ـ ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾	١٢	٣٣

سورة التغابن

ـ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ . . . ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾	٥ ـ ٦	٨١

سورة الملك

ـ ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾	٢٢	١١٦

سورة القلم

ـ ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾	٩	٥٩
ـ ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ . . . ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	٥١ ـ ٥٢	١٢٥

سورة الحاقة

ـ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ . . . مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٤١ ـ ٤٣	٨٧

سورة المعارج

ـ ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾	٤	١٦٧ح

سورة نوح

ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ . . . لَهُمْ إِسْرَارًا﴾	٥ ـ ٩	١٦٥
ـ ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ﴾	١٦	١٧٠

سورة الجن

ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾	١٩	٦٣

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سورة المزمل

ـ ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾	٦	١٧٧

سورة القيامة

ـ ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾	٤	١٣٣ ، ١٣٩
ـ ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾	٣٩	١٥٩ ، ١٦٠

سورة الإنسان

ـ ﴿ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾	٤	١٢١ح

سورة النبأ

ـ ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ . . . ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾	٨ ـ ١١	١٤٣
ـ ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾	١٣	١٧١

سورة النازعات

ـ ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ . . . وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾	٣٠ ـ ٣٢	١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٢

سورة التكوير

ـ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ . . . نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾	١ ـ ١٤	٢٢
ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ . . . بِمَجْنُونٍ ﴾	١٩ ـ ٢٢	٨٦

سورة الانفطار

ـ ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ . . . قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾	١ ـ ٥	٢٣

سورة الطارق

ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾	١١ ـ ١٢	١٤٧

سورة الغاشية

ـ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ . . . كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾	١٧ ـ ٢٠	١٣٦

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سورة الفجر

ـ ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾	٥	١٥٤ح

سورة الليل

ـ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾	١	١٤٣

سورة القارعة

ـ ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ . . . حَامِيَةٌ ﴾	٦ ـ ١١	٢٣

سورة قريش

ـ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . . . مِّنْ خَوْفٍ ﴾	١ ـ ٤	٩٧

سورة الكافرون

ـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا . . . مَا تَعْبُدُونَ ﴾	١ ـ ٢	٥٩

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

أول الحديث	الصفحة
ـ أتدرون ماذا قال ربكم؟	١٤٨
ـ أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله التربة	١٦٧ح
ـ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث	١٩٠
ـ أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي	٦٣
ـ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر	١٨٧
ـ ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم	١٠٠ح
ـ إنا نركب البحر ومعنا القليل من الماء	١٥٦
ـ أن رجلاً قال يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه	١١٦ح
ـ إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن	١٨٤
ـ إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً	١٠٨ح
ـ أنه سأل رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم	١٨٠
ـ إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار	١٨٥
ـ جلس جبريل إلى النبي ﷺ... قال بل عبداً رسولاً	٩٢ح
ـ الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور	١٤٣
ـ خير أمتي قرني ثم الذين	١٢١ح
ـ خير القرون قرني ثم الذين يلونهم	١٢١
ـ خير الناس قرني	١٢١ح

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله .. ٥٧
ـ ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أُحد ٩٣ح
ـ عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ١٨٧
ـ عرض علي ربي عزَّ وجلّ ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ٩٢ح
ـ كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ١٨٤
ـ كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك ٦٣
ـ لا يحل دم امرئ مسلم ١٨٠
ـ لله أشد فرحاً بتوبة عبده ١٨٦
ـ ليتمنينَّ أقوام أنهم أكثروا من السيئات ١٨٦
ـ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ١١٣
ـ يا جبريل إني أحب أن أعلم أمر السحاب ١٥٠ح
ـ يا رسول الله أهو الذي يزني ويسرق ١٧٨
ـ يا رسول الله رجل غدر وفجر ١٨٤
ـ يتفصد جبينه من العرق ٨٥ـ٨٦
ـ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ١٦٠
ـ يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ٩١ح
ـ يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ١٠٥ح

* * *

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ ـ فهرس الأعلام

حرف الهمزة

آدم عليه السلام: ٤٩، ٥١، ١٦٠
إبراهيم عليه السلام: ٣٠، ٤٥، ٤٩
الأخنس بن شريق: ١١٠ ـ ١١١
إدريس عليه السلام: ١٧١
اسفنديار: ٧٦، ١١٠
إسماعيل عليه السلام: ٤٩

حرف الباء

البخاري: ٥٧، ١٨٧
البقاعي: ١١
بلال: ١٠١
أبو بكر: ١٢٥
أبو بكرة: ١٨٧
البيهقي: ٥٧

حرف الجيم

جبر مولى ابن عامر: ٧٧
جبريل عليه السلام: ١١٣
ابن جرير: ١٨٤
أبو جهل: ١٠٠، ١١١
أبو جابر: ١٨٤

حرف الحاء

ابن أبي حاتم: ١٨٤
ابن حبان: ٥٧
الحسن: ١٨٥
حنظلة بن صفوان: ١٢١

حرف الخاء

الخضر عليه السلام: ٤٧، ٤٨
خريم بن فاتك: ١٨٧
الخليل: ١٥٥

حرف الدال

أبو داود: ١٨٧

حرف الذال

أبو ذر: ١٨٥

حرف الراء

رستم: ٧٦، ١١٠

حرف الزاي

الزجَّاج: ١٦٠، ١٨٥
زكريا عليه السلام: ١٥، ٤٩
زهير بن أبي سلمى: ١٢١

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حرف السين

سعد بن أبي وقاص: ١٢٥

أبو سعيد الخدري: ١٨٤

سعيد بن جبير: ٥٨، ١٨٤

سعيد بن المسيب: ١٨٦

أبو سفيان: ١١١

سيد قطب: ٩

السيوطي: ٣٥

حرف الشين

الشافعي: ٥٧

شعيب عليه السلام: ٨٠

حرف الصاد

صالح عليه السلام: ١٢١

صهيب: ١٠١

حرف الضاد

الضحاك: ٥٨

حرف الطاء:

أبو الطفيل الدوسي: ١١٠

حرف العين

عائشة: ١٧٩

العاص بن وائل: ١٠٠

ابن عباس: ١٣، ٥٨، ٦٣، ١٤٧، ١٤٩، ١٨٤، ١٨٥

عبد الرحمن بن جبير: ١٩٠

عبد العليم خضر: ١٥٣

عثمان بن عفان: ١٢٥

عداس مولى حويطب بن عبد العزى: ٧٧

ابن عطية: ١٦٠

عكرمة: ١٩٠

علي بن أبي طالب: ١٣٨

عمار بن ياسر: ١٠١

عمر بن الخطاب: ٥٧، ١٧٩

عيسى عليه السلام: ١٥، ١٦

حرف الفاء

ابن فارس: ١٥٥

فرعون: ٥٠، ١١٩

أبو الفضل: ١١

حرف القاف

القاسم بن أبي بزة: ٥٨

القاضي: ١٨٦

قتادة: ٥٨، ١٨٥

القفال: ١٨٦

حرف اللام

لابلاس الإفرنسي: ١٣٥

لوط عليه السلام: ١٢٢

حرف الميم

ابن ماجه: ١٨٧

مالك: ٥٧

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مجاهد: ١٨٥
محمد إبراهيم السمرة: ١٥٨
مريم عليها السلام: ١٥، ٤٩
ابن مسعود: ١٣٧، ١٤٧، ١٥٦، ١٨٠
مسلم: ٥٧، ١٨٥، ١٨٧
المقداد بن الأسود: ١٩٠
مكحول: ١٨٤، ١٨٦
موريس بوكاي: ٧٨
موسى عليه السلام: ١٣، ١٤، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ١١٣، ١٢٠

حرف النون

النضر بن الحارث: ٧٦، ١١٠
نوح عليه السلام: ٤٩، ١٠١، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٦٥

حرف الهاء

هارون عليه السلام: ٤٩، ١٢٠
هرمس: ١٧٠
أبو هريرة: ١٨٦
هشام بن حكيم: ٥٧
هود عليه السلام: ٣٠، ١٢١

حرف الواو

الوليد بن المغيرة: ١٠٠، ١٥١

حرف الياء

يسار مولى الحضرمي: ٧٧
يحيى عليه السلام: ١٥
يونس عليه السلام: ٣٠

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ ـ فهرس المراجع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، المكتبة المصرية.

٢ ـ الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام.

٣ ـ التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر.

٤ ـ تفسير الطبري (جامع البيان)، الطبري، دار إحياء الكتب العربية.

٥ ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.

٦ ـ تفسير القرآن، الصنعاني، مكتبة الرشد.

٧ ـ حاشية الشهاب على البيضاوي، الشهاب، دار صادر.

٨ ـ حاشية زاده على البيضاوي، زاده، المكتبة الإسلامية ـ تركية.

٩ ـ خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار، الدار السعودية للنشر.

١٠ ـ دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف.

١١ ـ الرحيق المختوم، المباركفوري، دار الريان.

١٢ ـ روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي.

١٣ ـ زاد المسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي.

١٤ ـ سبل الهدى والرشاد، الصالحي، دار الكتب العلمية.

١٥ ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، الترمذي، دار الفكر.

١٦ ـ سنن ابن ماجه، ابن ماجه، إحياء التراث العربي.

١٧ ـ السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة.

١٨ ـ السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

١٩ ـ صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، البخاري، إستانبول.

٢٠ ـ صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، مسلم، دار الفكر.

٢١ ـ عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، دار السيد.

٢٢ ـ فتح القدير، الشوكاني، دار الأندلس.

٢٣ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.

٢٤ ـ الكون والإعجاز العلمي، منصور حسب النبي، دار الفكر العربي.

٢٥ ـ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر.

٢٦ ـ محاسن التأويل، القاسمي، دار إحياء الكتب العربية.

٢٧ ـ المحرر الوجيز، ابن عطية، دار العلوم.

٢٨ ـ المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد أبو شهبة، دار اللواء.

٢٩ ـ مختصر سنن أبي داود، المنذري، دار المعرفة.

٣٠ ـ المسند، أحمد بن حنبل، دار صادر.

٣١ ـ معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، عالم الكتب.

٣٢ ـ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الجيل.

٣٣ ـ مفاتيح الغيب، الرازي، دار الكتب العلمية.

٣٤ ـ المفردات، الأصفهاني، الإنجلو المصرية.

٣٥ ـ منار الهدى، الأشموني، دار المصحف.

٣٦ ـ مناهل العرفان، الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية.

٣٧ ـ من أوجه الإعجاز العلمي في القرآن، إصدار هيئة الإعجاز للقرآن والسنّة.

٣٨ ـ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، إحياء التراث العربي.

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥

تمهيد ٧

منهج البحث في تفسير سورة تفسيراً موضوعياً ٨

خطوات البحث في تفسير سورة تفسيراً موضوعياً ٩

* الخطوة الأولى: التعريف بالسورة ٩

* الخطوة الثانية: التعرف على محور السورة ١١

- التعرف على محور السورة من خلال اسم السورة ١١
- التعرف على محور السورة من خلال معرفة المرحلة الزمنية ١٨
- التعرف على محور السورة من خلال المناسبات ٣٤
- التعرف على محور السورة من خلال الموضوعات في السورة .. ٤٣

* الخطوة الثالثة: تقسيم السورة إلى مقاطع ٥٢

المعجزة والرسول من خلال سورة الفرقان ٥٥

بين يدي سورة الفرقان ٥٧

المناسبات في سورة الفرقان ٦١

أولاً ـ المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمة سورة النور .. ٦١

ثانياً ـ المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمتها ٦٦

ثالثاً ـ المناسبة بين اسم السورة ومحورها ٦٨

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

رابعاً ـ المناسبات بين مقاطع السورة وبين المقاطع ومحور السورة . ٧٠
محور سورة الفرقان ٧١
افتتاحية سورة الفرقان ٧٢
ـ المقطع الأول : شبهاتهم حول القرآن والرد عليها ٧٥
ـ المقطع الثاني : شبهاتهم حول الرسول ﷺ والرد عليها ٨٠
ـ المقطع الثالث : الدوافع الحقيقية وراء تكذيبهم ٩٠
ـ المقطع الرابع : سنّة الله في اختيار الرسل ، وعادة المكذبين المستكبرين ٩٩
ـ المقطع الخامس : أحداث الساعة وندم الظالمين بعد فوات الأوان . . ١٠٤
ـ المقطع السادس : محاولات للتشكيك في القرآن ١٠٧
ـ المقطع السابع : تسلية رسول الله ﷺ ببيان سنّة الله في المكذبين ١١٨
ـ المقطع الثامن : لجوء العاجز عن الحجة إلى الاستهزاء والسخرية . . ١٢٤
ـ المقطع التاسع : من دلائل النبوة : الحقائق الكونية التي وردت
على لسان الأمي ١٢٩
تمهيد بين يدي البحث في الآيات الكونية ١٣٠
الجولة الأولى في المشاهد الكونية : الظل والشمس ١٣٩
الجولة الثانية في المشاهد الكونية : الليل والنوم والنهار ١٤٣
الجولة الثالثة في المشاهد الكونية : الرياح والمطر والماء ١٤٤
الجولة الرابعة : وقفة للتذكير والتعقيب ١٤٨
الجولة الخامسة : البرزخ بين البحرين ١٥٢
الجولة السادسة : خلق الإنسان : النسب والصهر ١٥٩
الجولة السابعة : كيف يعبد غير الله؟! تعقيب واستغراب ١٦١

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ المقطع العاشر: مهمة الرسول ﷺ ومنهجه في دعوة المعاندين ١٦٣
ـ المقطع الحادي عشر: ثمرات الرسالة الربانية ١٧٢
فوائد منوعة: ١٨٢
١ ـ فوائد بيانية ١٨٢
٢ ـ فوائد في الجمع بين الآيات ١٨٣
٣ ـ فوائد في صور لطف الله العزيز اللطيف بعباده ١٨٥
خاتمة البحث ١٩٤
الفهارس العامة ١٩٧

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net